حصار الرئيس

يوم أمس كان العشرين من أيلول -أسبوع كامل ويكتمل العامان على بدء الانتفاضة- والبارحة كان يوم جمعة، حيث صلّى المسلمون في بيوتهم، لأن المساجد والجوامع لم تفتح أبوابها منذ الثامن والعشرين من آذار الماضي. أي ستة أشهر لم يُرفع فيها اسم الله على المحاريب والمنابر، وغاب صوت المؤذّنين الذين يدعون إلى الصلاة؛ أي حيّ على الصلاة وليس «حيّ على الجهاد». الصلاة ممنوعة في المساجد في زمن الاحتلال اليهودي!

والصلاة ممنوعة في الكنائس في زمن شارون وبوش وصمت العالم المسيحي والإسلامي والبوذي واليهودي والسيخي!

وعلى الموتى أن ينتظروا في ثلاجاتهم، أو على التذاكر الخشبية، ودكّة غسل الموتى!

وعلى الأجنة ألا يتعجلوا صرخة الولادة!

وعلى المرضى أن يكتموا أوجاعهم وآلامهم، ويعضّوا على أقرب شيء!

وعلى الجوعى أن يضعوا حجارة على بطونهم حتى لا يعصرهم الجوع بمخالبه وأنيابه!

وعلى الآباء الذين ينظرون أبناءهم مكوّمين أمامهم، كابين مكتئبين خائفين، دون خبز أو حليب أو ماء أو كهرباء أو حراك، أن يغمضوا عيونهم، وينسوا، إن استطاعوا!

وعلى مَنْ هدموا بيته، أو قتلوا ولده، أو خلعوا حقله، أو هرسوا مركبته، أو حرقوا مخزنه، أو جرحوا زوجه، أو سجنوا شقيقه، أو ضربوا وأهانوا

جاره، أو منعوا خاله من العمل، أو عمّه من الوصول إلى المشفى، أو منعوا أخته من الولادة في العيادة، وحالوا دون أن يذهب صغاره إلى المدارس، أو حبسوا شعبه كله في معازل كبيرة ثم في سجون صغيرة هي بيوتهم، ولمدة عامين كاملين، ومن دون أن يقف العالم ضد كل ما يجري، عليه ألاّ يفقد عقله أو يُصاب بمرض مُميت، بل عليه أن يبتسم ويأخذ زينته ويبحث عن أقرب منصّة حجريةً، ويقف، ويجمع كل الماء الذي في فمه، ويبصق في وجه العالم.

يوم الجمعة، العشرين من أيلول 2002، يشهد المرّة الثالثة التي يحاصر فيها جيش الاحتلال الإسرائيلي مقر الرئيس ياسر عرفات في رام الله بالمدرعات والمجنزرات والبلدوزرات والديناميت، وبغطاء من طائرات التصوير التي تُسمى «أم كامل» ومروحيات «الأباتشي»، وبالصواريخ، وبحملة إعلامية مسعورة تمتد من تل أبيب إلى واشنطن. يقوم الجيش، بكل آلياته بهدم ما تبقى من أبنية وكراجات وقاعات وممرات وأرضيّات وأرصفة ومخازن ومسجد صغير وساحة مهبط الرئيس، ويظل الرئيس ومَنْ معه في غرفتين ناتئيتين، كالمسلّة الغليظة وسط فراغ مخيف، والأدهى أن المسؤولين العرب و«الأصدقاء» والمسلمين يجرون الاتصالات ويتوسّلون أمريكا، لعلّها تضغط على شارون ليوقف عدوانه ضد مقر أبي عمّار.

العالم العربي والإسلامي كلّه، من المحيط إلى الخليج، والذي يطالب بالتطبيع، وليس بالتحرير، يرجو شارون ليوقف عدوانه ضد رجل ليس له ذنب سوى أنه يرفض أن يكون مطيّة أو عبداً أو بيدقاً بيد شارون أو بوش!

وهذا الرجل لا يطلب محاربة إسرائيل، بقدر ما يُعلن استنكاره العمليات الاستشهادية التي تقع هناك داخل إسرائيل!

فماذا يريدون من هذا الرجل؟ أن يكون عميلاً صغيراً، ولعبة متحركة بيد شارون؟! ماذا يريدون من رجل وافق على «تطويب» ثمانين بالمئة من فلسطين التاريخية لليهود، الذين ليس لهم أي حقّ في فلسطين، مقابل أن يقيم دولته الصغيرة على ما تبقى منها؟!

وماذا يريدون من رجل يُبدي استعداده للتعاون الواضح مع إسرائيل التي عليها أن تُعطي الفلسطينيين بعض حقوقهم المُستلبة؟ أي مشهد كاريكاتوري أبلغ من هذا المشهد: العالم يتوسّل شارون المعتدي ويرجوه أن يوقف مذبحته بحقّ الأبرياء، ثم يُعلن العالم، في مجلس الأمن، أن على الفلسطينيين حماية أمن إسرائيل!! وأنّ ما يجري حول مقرّ الرئيس عرفات لا يُعد أمراً خطيراً! ثم تُعلن أمريكا أنها تتفهم ردّة فعل إسرائيل التي تدافع عن أمنها!!

هل ثمة شيء آخر غير أن نغسل وجه هذا العالم؟

منذ العام تقريباً وهم يحاصرون ياسر عرفات، الذي لم يغادر مربّعه، إلا ساعات هنا أو هناك. عام كامل وأبو عمار محاصر، مسجون، محبوس، مُراقب، مُحاط بالبنادق والمناظير الليلية وفوّهات المدافع ورشاشات الطائرات، مضغوط، يضعون أمامه قوائم مطالبهم واشتراطاتهم المُذلّة المستحيلة، لكن أبا عمار الذي لم يكن هذا حصاره الثالث، بل هو الثالث والثلاثون، يعرف جيداً قَدَرَه وقَدْره، ويعلم أنه المتوّج رغم أن الآخرين يظهرون كالمنتصرين. وربما على شارون ألاّ يحارب، هو وغيره، اثنين؛ الأول الذي لا تهمّه الخسارة، والثاني الذي

يكون على حق. وأبو عمار تهمه الخسارة وتحزّ في قلبه، لكنه يحتملها، وأبو عمار محقّ إلى يوم يُبعثون، لهذا فهو المنتصر، مهما تكن النتيجة ولن يكون شارون أكثر من مجرم سفّاح محتلّ متغطرس.. وإلى حيث ألقت!

إن ياسر عرفات، وهو مُحاصر، يصنع التاريخ الصعب، رغم حملات التشويه والتشكيك والتبسيط المشبوه. وياسر عرفات يتمتع بمعنويات فذّة لا تليق إلا برجل مثله. لقد تحدثتُ معه عبر الهاتف لأطمئن عليه، لكنه سأل عن الناس والصغار، وراح يطمئنّ علينا!

أيّ إيثار وجسارة وعلوّ يتمتع به هذا الرجل؟! تحاول أن تسنده بالكلمات لرفع معنوياته، فيمدّك بفيض من الثبات والرسوخ والإيمان والصبر.

إن الحديث مع ياسر عرفاتٍ، في مثل هذه الظروف، وهو مستهدف ومخذول، يُنسيك مرارة القهر، ويأخذك إلى صموده وإشراقه. لكنني أسأل، مع هذا، عن غياب صوت الكثير من المسؤولين الفلسطينيين، الذين التزموا الصمت، ولم يحركوا ساكناً، ولم يرفعوا عقيرتهم احتجاجاً واستنكاراً وتحركاً إعلامياً وفصائلياً وجماهيرياً، في قطاع غزة والضفة الغربية والقدس، وعبر الفضائيات والبيانات.. أين هديرهم؟ وأين صوتهم الناقد الناقم؟ وماذا يعني هذا السكوت؟! هل يريدون إثبات أنهم مثل باقي المسؤولين العرب؟!

عندما اجتاحت قوات الاحتلال الإسرائيلي أوّل مرة مدينة جنين ومخيمها البطل، قبل الاجتياح الشامل الذي وقع في شهر آذار، ببضعة أشهر، سمعنا تصريحات تقدح شررا وتهديدات مهولة مرعبة، من بعض المسؤولين الفلسطينيين والوزراء والأمناء والوكلاء.. الخ، الأمر الذي

اطمأنّ معه الناس، إلى أن هؤلاء المسؤولين قد رتّبوا كل شيء، وأن إسرائيل ستغرق في وحل دمائها إذا اجتاحت شبراً واحداً من الأراضي الفلسطينية، واكتشفنا بعد أسابيع أن إسرائيل كانت تجتاح بعض المناطق، وتخرج منها، لقياس قوتنا، وإجراء تمرين «بروفا» للاجتياح الكبير، وتعرف ردود فعلنا وإمكانياتنا وقدراتنا، وربما كانت تعرف - للأسف - أن تلك التصريحات النارية لم تكن أكثر من زبد.. ربما كانت هي وراء تصديره للناس، لإيهامهم وإحباطهم وتعميق مأساتهم..

أين المسؤولون؟ وأين الأبواق الفرسان. وأين المحيطون بياسر عرفات الذين أثروا واستغنوا.. وأصبحوا قادة ومن علّية القوم؟ أين هم اليوم وهو محاصر تدكّ غرفته مدافع الاحتلال، وتتفلّع الجدران من حوله من جرّاء القذائف، واحترق كل التموين في مخازنه.. ولم تعد أمامه حبة أرز أو شربة ماء؟! ولماذا طاب لبعض المسؤولين أن ينقلوا عائلاتهم وأموالهم ومصالحهم الكثيرة إلى خارج الوطن، وما زالوا يزعقون في وجهنا، لإقناعنا بأنهم مسؤولون وتطهّريّون؟! إنهم مثل كلب الحداد الذي لا توقظه الضربات الحديدية بل يوقظه صوت المضغ والطعام!

إنّ حصار ياسر عرفات هو تتويج لكل حصارات الاحتلال التي يفرضها على كل ما هو، ومَنْ هو فلسطيني. وهو حصار يهدف إلى توجيه إهانة لكل مسؤول وفرد عربي يخفق قلبه للقدس، أو تقطر عيناه مع أمهات الشهداء على القتلى، بل هو تلويح أمريكي إسرائيلي لكل حاكم عربي، مسلم، أو في أية بقعة في هذا الكوكب، ودرسٌ لهؤلاء الحكّام ينبغي عليهم فهمه، ومفاده؛ أنه إذا لم يخضع كل حاكم لإدارة أمريكا وإسرائيل، فإن مصيره سيكون الإهانة والحصار والعزل.

وإن حصار ياسر عرفات هو ذروة الحصارات الأمريكية الإسرائيلية المضروبة على ثروات العرب والمسلمين ومقدّراتهم وقراراتهم ومستقبلهم، وهو أحد تجليات السياسة الأمريكية الإسرائيلية التي ما فتئت تستبيح كل شيء، وتوظّف كل شيء، لإشباع شهواتها وتحقيق رغباتها على حساب الشعوب، دون أدنى رادع من الأخلاق أو الأعراف أو المواثيق.

وإن حصار ياسر عرفات يؤكد أن لاءه ما زالت قائمة، وأنه لم يرفع، ولن يرفع، الراية البيضاء.

وسنبقى مع هذا الرجل، ما دامت الـ «لا» الفلسطينية قائمة، وما زال يُصرّ على نيل حقوقنا المتمثلة في إقامة دولتنا المستقلة كاملة وعاصمتها القدس الشريف، وعودة اللاجئين إلى وطنهم الأول.. غير منقوصين. إننا نعوّل على هذا التاريخيّ.. ونراهن عليه.

ليلة نهارية

تقول الأساطير القديمة: التقى الإلهان في منازلة دون أن يتمكّن أحدهما من إخضاع الآخر، فأصبحا صديقين وخلقا المأساة.

ولأننا لسنا آلهة، نحن الفلسطينيين، بل بشرٌ متحضّرون، فإننا ننازل أعداءنا ليستيقظوا من وَهمْ الكارثة التي يقودون أنفسهم وغيرهم إلى هاويتها، ولا نسعى لإخضاعهم، عكس ما يسعون إليه، ونحاول أن نصبح «أصدقاء»، بشروط إنسانية ندّية، حتى لا تظلّ المأساة.

غير أن سماءنا، ومنذ عامين كاملين، جعلها الاحتلال الإسرائيلي سديماً

خانقاً، مثلما حوّلها العالم اللا مبالي إلى سماء خرساء. . لا تنطق فيها غير قاذفات الطائرات. . التي تئزّ من فوقنا، صباح مساء، محمّلة بالقنابل والرعب. وربما حلم أطفالنا بأن تلتقي طائراتهم الورقية الملّونة الخفيفة. . بطائرات تشبه الطير الصناعي اللطيف - الذي تخيله ليوناردو دافنشي - يحمل الثلج من قمم الجبال الشاهقة، في الصيف، ليرشّه على المدن من أجل تبريدها. ولم يحلم صغارنا، بالتأكيد، بتلك الصواعق التي تصبّ حمولاتها الجحيمية، وقضبانها البرقيّة الخاطفة. . على الأحياء والبيوت والطرقات. لكنه الاحتلال الذي يعتبر جوهر حياته هو الرغبة في موت الآخرين. . والسيطرة على كل شيء. إلا أن كبرياء الزهد في رمزنا وشعبنا جعله يستقبل الشهادة بفرح، ويفرش دمه كالمرجان الأحمر ليكون أرض جزيرته التي يقيمها فوق الهاوية. والشهداء يتمتعون بالجنّة، جيداً، لأنهم يعرفون جحيم الاحتلال.

إنّ السوبرمان اليهودي - وليس النيتشوي فحسب - ليس إلا سراباً يخدع الإسرائيلي التعيس. ويمكّنه من تحمّل الحياة والموت. لهذا فهو سادرٌ في غيّه، ولن يوقفه إلاّ الصمود أمامه ومواجهته، لعله يشفى من أوهامه. وهذا يحدث لأول مرّة في التاريخ، أن تقوم الضحيّة بتنظيف ومعالجة ذابحيها. وبالردّ على إجراءات الاحتلال والثبات مقابله، ومقارعته سيكتشف هذا المحتل المُعتدي عاديّته وبساطته وإمكانية أن يحيا بشكل طبيعي مع محيطه. بالدم سيكتشف هذا السوبرمان أن العالم مقسّم على الجميع بالتساوي، وليس ملكاً له وحده. وسيكتشف أن الله للجميع، وليس «رب الجنود» أو «رب إسرائيل». . وسيكتشف أن دمه ليس من فصيلة أخرى ملائكية. . والحقيقة، بالتأكيد، مميتة بالنسبة للإسرائيلي المحُتلّ، إلا أنها أسمى من أجمل الكذبات وأغناها.

وربما، يبدو للعيان أن الردّ الفلسطيني على التنكيل والهستيريا الاحتلالية قد تأخّر، لغير سبب. غير أن ليلة 21/ 9/ 2002 جاءت كالسيل الذي رنّق الأرض وغطّى أخاديدها الجافّة، وبشّر بأن البستان الفلسطيني الريّان ما زال قادراً على أن يتجاوز كل الحرائق، يمرع بدلاً منها أدغالاً خضراء. منذ ثلاثة أيام وآليات الاحتلال تنهش جدران مقر الرئيس، بعد أن نسفت كل الأبنية المحيطة، ورشقات الرصاص الغليظ لم تقف عن تنخيل الجدران والنوافذ، والعالم يغرق في صمت العار. والفلسطينيون محشورون في بيوتهم، تحت نظام حظر التجول وأرتال الدبابات والمجنزرات، ووسائل الإعلام تتابع لحظةً بلحظة ما يدور في «المقاطعة» أو حول ما تبّقى منها. إلا أن خبراً مختصراً قلب كل التوقعات، وهو أن الاحتلال سيقوم بنسف المبنى المقابل لمقر الرئيس، وأن هذا الانفجار سيؤدي إلى كارثة، لأن في أسفل هذا المبنى صهاريج للنفط والغاز، وأن انفجارها سيزلزل المكان برمّته، وسيؤدي إلى انهيار مقرّ الرئيس عليه وعلى مَنْ معه. وما هي إلا دقائق، بعد تداول هذا الخبر حتى خرج الناس من بيوتهم، بلا وعي منهم، وراحت المآذن تكبّر وتنادي وتستصرخ، والجرسيّات في الكنائس تدقّ وتدقّ، وامتلأت الشوارع بالسيارات التي أطلقت أبواقها الجماعية، في تظاهرة صاخبة أصابت قشعريرتها الحديد، وطفق الشبان والنساء والرجال والفتيان، رغم كل إجراءات المنع والتهديد والرصاص، طفقوا إلى مراكز المدن والمخيمات والبلدات، وتعالت الحناجر، واصطهدت الطرقات، وبكت النساء، وزغرد بعضهن، وارتفع التكبير، وعلت صيحات النداء بحياة الرئيس عرفات، والتقت الجموع بقوات الاحتلال التي فتحت نيران بنادقها الطائشة على

المتجمهرين، فسقط الجرحى، واعتلى الشهداء أكتاف الناس، وتفرّق الجمع اتقاءَ الرصاص والغاز المجنون، وعادوا ورشقوا قوات الاحتلال بالزجاجات الحارقة والفارغة والحجارة، وما هي إلا لحظات حتى كانت مدن وقرى ومخيمات الضفة والقطاع بُقعاً مُضاءة بالحشود والأناشيد والدماء، ووصل الصوت إلى أعنّة السماء، وانكسر نظام حظر التجول، فسارعت قوات الاحتلال بزجّ المئات من المدرعات والدوريات والمجنزرات، وامتلأت الساحات والأزقة بالخوذات وطوفان الرصاص الحاقد والقنابل الخانقة، ولوّحت الطائرات في السماء، وبقيت الأراضي الفلسطينية حتى الهزيع الأخير تعلن وفاءها للرجل الذي أمضى عمره مناضلاً من أجل فلسطين حتى أصبح رمزاً لنضال الشعب وطموحاته المشروعة.

ولعل انتقال هذه الهبّة إلى المعتقلات الصهيونية التي تضمّ بين قيودها ثمانية آلاف معتقل دليل على حيوية هذا الشعب الفلسطيني وأن عافيته ولياقته باقيتان نافذتان. وبالتأكيد فإن هذه الليلة لم تكن استفتاءً وإجماعاً على شخص الرئيس فحسب، بل كانت رداً حاسماً على أمريكا وإسرائيل اللتين اعتبرتا أبا عمار غير مقبول أو أنه انتهى.

لقد أثبت الشعب الفلسطيني أن الذي يحمي المصالح الفلسطينية ويحفظ الحقوق الفلسطينية هم الفلسطينيون. كما أثبتت هذه الليلة صحة الانتفاضة الشعبية غير العسكرية وجدواها. وأنها رد على كل أشكال الاذلال والقمع والتجويع التي لن تؤدي إلاّ إلى الانفجار. كما أن تجدد هذه الهبّة في الأيام التالية، واتساع رقعتها يؤكدان للاحتلال أن الشعب الفلسطيني مصرٌ على نيل حقوقه مهما طال الزمن، وأنه لا مجال أمامه

سوى الانسحاب الكامل، كما أن هذه الهبّة تحذير حاسم للاحتلال لكي يرعوي ويبتعد عن المساس بشخص الرئيس والقيادة حتى لا تغرق الأرض بدوّامة لا تنتهي من الدم والعنف والخراب.

إن الشعب الفلسطيني يدرك، بخبرته الطويلة وبإحساسه العميق، أن حصار ياسر عرفات يعني أنه ما زال يحفظ الأمانة الوطنية، وما زال يرفض الخنوع والاستسلام، لهذا على الشعب أن يسانده ويدعمه بدمه ودمعه وحناجره.

وبالتأكيد، فإن هذه الهبّة قد أمدت المحاصَرين والشعب الفلسطيني بدفقات معنوية عالية، وكانت رافعة جديدة اجترحها الشعب الذي يخلق أشكال التعبير غير المتوقعة ليوصل رأيه الواضح إلى كل الجهات.

وقد اكتشفنا خلال حمأة تلك الليلة أن كل ما قيل حول الصفقات السابقة لا يمكن أن يكون مدعاة للانكسار، بل نعتقد أن هذه الهبة ستحصّن القيادة، وستحول دون عقد أية صفقة في غير صالح القضية والشعب، لأن عقد أية صفقة سلبية سيكون شكلاً من أشكال الانتحار السياسي وعامل إحباط ينعكس سلباً على الناس وتضحياتها، واستعدادها الدائم للمواجهة.

بعد ساعات معدودة

ساعات معدودة، ونستقبل العام الثالث للانتفاضة. ويبدو أن الدولة المحتلة ما فتئت سادرة في غيّها، فهي ترفض تطبيق قرار مجلس الأمن الأخير الخاص بانسحابها الفوري من المقاطعة (مقر الرئيس عرفات) ومن

المـدن الفلسطينيـة . . لتعود الأمور إلى ما كانـت عليـه حتـى يـوم 28/ 9/ 2000 .
وهذا معناه تكريس شريعة الغاب والكيل بمكيالين ، لأن مجلس الأمن ، ومن ورائه الولايات المتحدة الأمريكية ، لم يضعا آلية تجبر إسرائيل من خلالها على تطبيق القرار . بل إن إسرائيل راحت تعصف بالبيوت نسفاً ، وتقصف بمروحيات «الأباتشي» السيارات الآمنة - وتتفتت الجثث على مفارق الطرق - وتقيم الاحتفالات بتدشين مستوطنات جديدة ، وتجمع المئات ، من كل الجهات ، في معتقلاتها الفاشيّة ، وأما الحصار فهو كالقضاء والقدر . . نازل لا محالة ، وحاضر بكل المدرعات والعربات والرصاص والأسلاك الشائكة ، وقد اكتمل الجوع والقهر والجنون .
ساعات معدودة على انتهاء العام الثاني الانتفاضة ، والأراضي الفلسطينية مشلولة ؛ لا عمل ولا حراك ، ولا مدارس ، ولا حصاد ، ولا دواء ، ولا ماء ، ولا هواء . . سوى أولئك الذين يخرجون ، من ثياب العتمة ، كل ليلة ، في رام الله أو طولكرم أو غزة أو قلقيلية أو نابلس أو غيرها ، يقرعون الطناجر بالملاعق ، أو يطلقون أبواق سياراتهم ، أو ينطلقون في مسيرات وتظاهرات احتجاجية ، ويصطدمون بقوات الاحتلال التي تمطرهم بقنابل الغاز والرصاص وتطاردهم في كل الأزقة والأحواش .
ولم يبق شيء سوى حفنة من رجال غامضين ، هم شبان مطاردون في الجبال ، ما زالت بنادقهم مُعلّقة على أكتافهم ، مثل رؤوسهم التي لا تنام ، يقتنصون فرصة هنا أو هناك ، وينصبون الكمائن لسيارات المستوطنين اليهود ، أو لمركبات الجنود . . وتدور اشتباكات عنيفة كثيفة ، وتأتي الطائرات ، وتتعلّق في السماء القنابل المضيئة . . فيسقط الشهداء

والجرحى . . ويتناقص عدد هؤلاء الشبان الذين تناثروا في الجبال الممتدة من جنين إلى الخليل، وهم مسلّحون تابعون لحركة »فتح« أو غيرها من الفصائل الفلسطينية . . وتسمع الأخبار القليلة التي تفيد بأن هؤلاء الملاحقين هم وعائلاتهم، وبيوتهم التي نسفها الاحتلال، يُعانون من نقص كبير في الإمدادات . . وقلة ما باليد، والحيلة.

وأعتقد أنّ ظاهرة «المطاردين» هذه، وهي ظاهرة قديمة في النضال الفلسطيني، كانت ستُعطي نتائج أكبر وأكثر تأثيراً لو تم تبنّيها من قبل المسؤولين . . الذين يتشدقون بالكلام أكثر مما تفعل أياديهم!

ساعات معدودة على ميلاد العام الثالث لانتفاضة الأقصى، والعالم العربي الإسلامي والمسيحي يأكل مع الشياطين لحم الموتى، ويولغ في دم الصغار الوردي، ويعود لنومه المتُسّع المريح، لكنه لن يستطيع أن يُبعد شبح الكابوس عن عينيه الغارقتين في العسل المنهوب. ولن يغلق أذنيه بالطين، لكي لا تصل إليه صرخات البنات، وهن يمزقن شعورهن، على ضفاف المقابر والبيوت المتطايرة.

ولن يرحل هذا العالم المنافق الضعيف الملعون إلى كوكب آخر، لا يوجد فيه فلسطينيون، يوجعون رأسه ويقلقون نهاره ويسممون عيشته بموتهم ودمائهم وزيتونهم المخلوع وجنازاتهم الجماعية!

ولن تجدي هذا العالم نفعاً كل الأمنيات الحمقاء، أو الصمت على ما تفعله دولة الاحتلال لإبادتنا أو إعادة تشكيلنا، أو كل المساعدات المباشرة وغير المباشرة لليهود، لإغلاق هذا الملف، بخلع الطاحونة المنخورة، من فم العالم الفاغر الأبله! لأننا ببساطة شديدة سنبقى رغم الجوع والحصار والموت والطائرات والرصاص والهدم والخلع والاعتقال

والملاحقة، سنبقى رغم التآمر الخارجي والداخلي والفساد والإفساد والصيد في المياه العكرة. .

سنبقى لأننا على حق، ولأن هذه هي أرضنا الأولى والأخيرة، والدنيا والآخرة، والأعراف.

هي فردوسنا وجحيمنا. . ولن تحتملنا أية بقعة، في أي مكان على أي كوكب، غير هذه المساحة التي اسمها فلسطين. عليها ولدنا، وعليها نحيا، وفيها نُبعث إليها، ونتناسخ فيها ونذوب في ثراها. هي حلمنا وقصيدنا ولحمنا وعرضنا ونشيدنا ودفترنا ورغيفنا ونارنا الباقية. سنبقى هنا على هذه الأرضَ، ببيوتنا ومن غير بيوتنا، ببطوننا الممتلئة والخاوية، بحريّتنا المقيدة أو المنسرحة، سندفن فيها موتانا وننتظر مخاض نسائنا بفارغ الصبر، على الحواجز وتحت الصبّار، وننتظر مواليدنا من بين شظايا القنابل ورشّات الرصاص. سنبقى هنا، نحتمل فساد الهواء الملغوم برائحة الاحتلال والمرَدَة، قابضي أرواحنا. وسنحتمل سقوط بعضنا شهيداً أو ضحية أو حسرة، وسنحتمل الجراح الفاهقة مثل الينبوع، طعناً في الظهر والخاصرة، أو شظايا عمياء في الوجه. وسنجمع وحدتنا في وَحدنا ونلاحق الكآبة والظلمة والهشاشة. وسنجمع صوتنا في صوتنا، وحناجرنا في شفتين اثنتين لا ثالث لهما، لنؤدي الأمانة إلى بارئها، حين نشهق بفلسطين.

ساعات قليلة وينتهي العام الثاني للانتفاضة المجيدة، وعقارب كل الساعات تشير إلى أن الدم الفلسطيني لن يتخثر ما دام، هنا، بسطار جندي محتل يهرس عشبة أو برعماً أو جمرة.

وما دام، هنا، مستوطن قاتل غاصب يذرع جبالنا وطرقاتنا، وما دام،

هنا، غريب نجس يقتحم جوامعنا وكنائسنا ودروب الرُسل والفدائيين. وما دام، هنا، غياب لأولئك اللاجئين الذين يجب أن يعودوا كاملين، مع رُفات أمواتهم، إلى جدرانهم الأولى وبياراتهم الباكية. وما دام، هنا، غصن نافر لم نشذّبه في مواسم الطهارة المتصّلة. لننعم بأفياء شجرتنا الخالدة، فلسطين.

ساعات معدودة وندخل العام الثالث للانتفاضة المباركة، وبعد أعوام وأعوام.. سيكتب أحفادنا أنهم، وبعد ساعات معدودة، سيدخلون العام العاشر للانتفاضة العاشرة.. ما دام الاحتلال جاثماً.. وما دامت الحرية -باركها الله- لم تأتِ كاملة إلى هنا؛ فلسطين.. وإلى يوم يُبعثون.

رام الله

في 20 رجب 1423 هجري،

الموافق 27/ 9/ 2002 ميلادي.

تعقيب:
(ملح يافا حلو)

– عن موت أُمّي –
(2001/4/9)

لم تكن تلك الليلة رقراقة نهارية، كما نشتهي ليل الربيع. كانت كابية لزجة، وصل دبق الدم البعيد، فيها، إلى وسائدنا، وضمّخ مرايانا.
هذه الليلة ثقيلة قلقة، جاءتني أكثر من عشرين مكالمة تلفونية من الأهل في قلقيلية، تحاول جميعها طمأنتي على صحة الوالدة، وأن وضعها مستقرٌ، وهي ترقد في غرفة العناية المكثفة في المشفى التخصصي في نابلس.
قبل يومين لم يستطع أحد من أشقائي اصطحابها بسيارة إسعاف لنقلها إلى نابلس بسبب الأحداث، ومنع الرجال من الخروج من قلقيلية، ومنع السيارات من التنقل، وإن سُمِحَ لسيارة فيكون معها تصريح من إدارة جيش الاحتلال، أو تقرير طبي يوضّح أن المنقول هو مريض سيتم إيصاله إلى أحد المشافي.
على الحاجز الشرقي الذي أقامه جنود الاحتلال في الطريق المؤدي إلى نابلس، في منطقة صوفين، أوقف الجنود سيارة الإسعاف، وراحوا يدققون في الأوراق والتقارير، وأنزلوا شقيقتي التي صاحبت أمها الممددة على أرضية السيّارة، وبرابيج الأكسجين الرفيعة متصلة بين جهازها التنفسي وأسطوانة الأكسجين. أخذ الجندي الهوية الشخصية الخاصة بشقيقتي، وراح يفحص، وبعد ساعة أو يزيد، قال لها: عليك أن ترجعي إلى البيت، فليس لديك تصريح خروج، وذهبت كل كلمات شقيقتي أدراج الرياح، وأبقوا المريضة وحدها، وبعد ساعة سمحوا لسائق سيارة الإسعاف بمواصلة الطريق، ليواجه أربعة حواجز متلاحقة في الطريق، بالقرب من بلدة عزون، وجينسافوط، وكفر قدوم، ورفيديا؛ ومكث السائق - كما أخبرني- ساعة أو أكثر عند كل حاجز،

ووصل المشفى بعد ست ساعات من انطلاقته من مشفى قلقيلية، وكادت الوالدة تختنق وتموت بسبب نفاد الأكسجين والتفتيش والصراخ.
اضطرت شقيقتي أن تسير وحدها أربعة كيلومترات عبر الطرق الفرعية والجبلية الموحشة، لتصل إلى بيتها باكية منهكة.
وصلت سيارة الإسعاف إلى المشفى، وليس مع الوالدة غير سائق السيارة، وبعد اتصالات وتوضيحات، أدخلوها إلى غرفة العناية المكثّفة، وتوجه أحد أنسبائنا القاطنين في نابلس، لمتابعة وضع الوالدة ودفع المبالغ المطلوبة لإدارة المشفى، ولم يستطع، على مدار ثلاثة أيام، أحد من أبنائها أن يزورها في رقدتها. وفي صبيحة اليوم الرابع، كانت الوالدة قد أسلمت روحها لبارئها.
اتصل بي نسيبنا من نابلس، ومن رجرجة صوته ولعثمته عرفت أن الوالدة قد توفّاها الله.
حزمت أمري للسفر إلى قلقيلية، وبعد بحث مضن واتصالات مُلحفة، تم الإجماع على أنني لا أستطيع الوصول إلىً مسقَّط رأسي إلا بوساطة سيارة إسعاف! اجعل نفسك مريضاً، وتمدد على سرير متنقل، واحمل أوراقاً من أي طبيب، وضَعْ جهاز التنفس الاصطناعي، وأغمض عينيك. وتوكل على الله.. يا متوكل.
انطلقتُ بسيارة الإسعاف، وقمت باللازم، وبعد سبعة حواجز، وخمس ساعات ونصف الساعة وصلت إلى قلقيلية. كان الأهل قد رجعوا من المقبرة، ودفنوا أعزّ الناس، وعادوا باكين، وصوت الشيخ عبد الباسط يضوّع المكان الحزين.
منذ اندلاع الانتفاضة لم أرَ أمي، وكنت أرجئ سفري إلى قلقيلية، لعل الأمور تيسّر لي فرصة لتقبيل يديها ونيل رضاها.

في المساء، ومن بين المعزّين الذين امتلأ بهم الديوان والممرات، أطال رجل الوقوف معزّياً مع أشقائي - الذين يكبرونني كلهم - ولمّا وصل إليّ شدّ على يدي، وقال لي حرفياً: عليك أن تكتب لكل العالم كيف أهانوا أمّك وهي ميتة، وطفقت من عينه دمعة عزيزة، واتخذّ مجلسه بين الناس.

في ساعة متأخرة من ذلك المساء الطويل الدامع، ذهب الأهل إلى بيوتهم، وظلت كلمات سائق سيّارة الإسعاف تضج في رأسي، مثل طحن الحجارة الصمّاء.

أحضر نسيبنا سيارة إسعاف، ووضع الجثة في صندوقها الخلفي.. وكان السائق من أهل البلد، ويعرفنا جيداً، كانت الساعة السابعة صباحاً، واتجه غرباً من نابلس إلى قلقيلية، وأراد أن يُمضي مُبكراً قبل أن تقع حادثة هنا أو صدام هناك، وتتعقّد إمكانية إيصال الجثة.. لكن الحواجز دائمة الاستنفار، وتعرف مهمتها في تعذيب الأحياء والأموات، وإهانة البشر والشجر.

يقول السائق: لم يصدقوا أنها ميتة، كانوا يكشفون عن جسدها وينخسونه بالهراوات أو أفواه البنادق. وكنتُ أحاول أن أصرخ أو أحتجّ، لكنني كنت أبلع غيظي وأطبق على فمي، بل إن جندياً عند حاجز عزّون قرر أن يفتش جسد الميتة خوفاً من احتوائه على متفجرات أو مواد ممنوعة -إنكم أيها الفلسطينيون تهرّبون السلاح في عوراتكم- وعندها، يقول السائق: صرخت، وكان صراخي بكاءً خشناً، وكنت أرتعش، وحضر الجنود والضباط، وبعد أربع ساعات من ذلك العنت والتفتيش والوخز في الجثة.. وصلنا إلى قلقيلية.

بعد أربعة أيام من تقبّل العزاء والبكاء، لا بدّ من العودة إلى رام الله، وعليه، لا بد من الاتصال بسيارة الإسعاف نفسها، وتمثيل الدور السخيف نفسه.

لقد كان ممكناً أن أصل بعد الجنازة بثلاث ساعات قبل العام ونصف العام، إلى قلقيلية، وأتقبل التعازي. وأحمد الله تعالى أنها لم تمت هذه الأيام، بعد الاجتياح وإعادة الاحتلال، فعندها كان من المستحيل الوصول إلى البلد، والوقوف أمام شاهدة القبر وقراءة الفاتحة على روح الحاجة عفيفة رحمها الله.

عندما تموت الأم يصيح ملاكٌ في السماء يقول لابنها: مات أول من يحبّك وآخر من يحبّك.

لقد رحلت الحاجة عفيفة قبل أن يخلعوا عليها باب دارها، وقبل أن ترى كل أشجار الزيتون والبرتقال واللوز والتين والرمان مخلوعة في أرضها، لقد عادت أرضك يا أمي حمراء دون زرع، كأنها رحم امرأة تنتظر من يفترعها بالصغار والشجر والطيور.

وربما -رغم موت أمي- كنتُ محظوظاً أكثر من ذلك الرجل، الذي أجبره جنود الاحتلال على خلع ملابسه كلها، هو وكل الرجال الذين اعتقلتهم قوات الاحتلال عند ذلك الحاجز، ثم أمر الجنود النساءَ المتواجدات أن يخلعن ملابسهن كلها، ولولا ذلك الاشتباك الطاحن الدامي الذي وقع فيه شهيدان.. لرأى ذلك الرجل أمه عارية! بسبب صمت العرب والمسلمين والمسيحيين والسيخ والبوذيين والفودو والطوطميين.. و..

*

ماتت أمي والطبول البعيدة تقترب من نافذتي، فيترنق الأصيص، ويبدأ حلم طفل يلهث بالحجارة في براري الشقائق والشمس الصغيرة. ماتت، والقوس بكامل توهّجه في سماء الانتفاضة، واضح الأطياف، يفتح الأبواب للبرق المخزون في غيوم الأرض.

ماتت الحاجة عفيفة والدم لم يتخّثر في أرض الرباط، والبطن المبقور يشهد على الجلّنار المذبوح على صدر أُمه، واللجوء ما زال يفرد غربانه من هناك إلى هناك.

ماتت، وامرأة نائحة تقول لآخر أبنائها: اذهب حتى لا تغلبني الخنساء أو تجد نساءُ المخيّم ما يكسر عزائي. وامرأة تقول لضفيرتها: احترقي حتى يحفظ ابني خارطة الغناء. والمفتاح الثقيل يقول لحامله الشيخ: ما زلت قادراً على فضّ الرمّانة وفك الصدأ. وطفل يولد الآن يقول: امسحوا دموعَ فاطمة حتى لا ترمد عيون مريم.

ماتت أُمي، والحجر الفلسطيني ما زال يهشّم وصايا التائهين الذين أحالوا المكان المؤوّل بالوهم، حيث تصل البساطير، إلى سجن يدوّي بالغضب.

ماتت وعرق الشيوخ يختلط بشرايين أبنائهم، ويدهم على جراح أحفادهم كأنها يد الله على كتف الأنبياء.

ماتت الحاجة عفيفة، والناس هنا في فلسطين يتقاسمون الرغيف والنزيف الذي يصهد الصخر، فتنحلّ خاصرته ويصبح ذراعاً تشهد على تعالي النسغ والضفيرة والرغيف الذي يسقط قمحه في جرح غائر أو قبر صغير أو حديقة لا تنام، ليشقوا العتمة، ويفتحوا ذلك المسرب السرّيّ للبراعم والطيور، لتكون كمشيئة الله، لا يهتك بها غاز أو عارٌ أو دخيل، وحتى نصحو بعد ليل طويل على صوت مولودة لها اسم

إيمان أو فتى له اسم محمد، وحتى ننسى عرائس الموت وقشعريرة الإعدام الجماعي، أو نحتفي بأولئك المصلوبين، خلف القضبان، على العقرب المخاتل.

ماتت أمي، والسيدة العمياء «العدالة»، لم تسترجع بعد بصرها أو بصيرتها، لكننا ماضون.

*

غالباً ما يضع أهل المريض سيناريو موته، كأنهم يهيّئون روحهم للحدث الغليظ الذي سينـزع عزيزهم من بين ضلوعهم، وكأن المرض توطئة للموت أو أولى درجاته المعتمة، رغم أن عظام المرضى لا تزال مبتلّة بالحياة، وبخار أنفاسهم ينسرب بهدوء إلى النوافذ الكئيبة. وربما كان هذا السيناريو مداراة لصعقة الموت، أو استعداداً لاستقبال الخبر الواقع لا محالة، أو تفادياً لجزع الفراق وضربته المصوّحة!

أما أهل الميت الذي يغادرهم فجأة فإنهم يلجأون إلى غير حيلة من حيل الدفاع الآلي، لينتصروا على المفاجأة الفظة العارية التي تسقط في رؤوسهم مثل قنبلة عمياء.

بمعنى، أن مرض الأعزاء أواخر أيامهم عزاء، بما يحمله من رسالة أولى تجعلنا نتخيّل أنفسنا وحالنا عند موت أحبابنا، وما إن يموتوا، راضين مرضيين، حتى نحيل أنفسنا وحالنا إلى معايشة الواقع الذي مررنا به وجرّبناه، واحتملناه، لهذا يكون دمعنا أقل، وحزننا أبهى وأعمق.

*

كانت تقول أمي – رحمها الله – دائماً: «ملح يافا حلو!»، وعندما خطبني أبوك كنت في العشرين من عُمري، على أبواب العنوسة آنذاك، العام 1942 أخذني إلى يافا لشراء كسوة وجهاز العروس، وما أن دخلت تلك المدينة التي كانت تضفضف بذهب البيارات وشهد الخيول، حتى أيقنت أنها مدينة معبأة بالسحر، تأخذك إلى امتلائها وروائحها وتفتحها الحذق. كانت مدينة واسعة مزدحمة وغنيّة بحريرها وأضوائها وأطعمتها الفوّاحة.. غادرتها ذلك المساء لأزورها في أحلامي، كأنها مدينة ملوك الجان، أو علّيات ابن الأمير، عدت إليها، غير مرة؛ لمعاودة طبيبة الولادة، وللسينما، ولابتياع أوّل خزانة ملابس بدل صندوق العروس! وقبل النكبة بعام واحد، كنتُ على شفير الوضع، وكان حملي صعباً، وما إن أجلسني أبوك على رصيف أحد مطاعم المدينة حتى وقعت عدة انفجارات، فتراكض الناس، وعمّ الهلع والصفير واصطخبت المدينة، ولا أدري كيف وجد أبوك سيّارة أقلّتنا إلى قلقيلية.. ومن يومها لم أذهب إلى يافا!

كانت النسوةُ العارفات؛
يَجْلينَ بالسُكَّر المزِّ
جلدَ العَروس،
يُزَجّجنَ بالشبَّة الحاجبينْ
ويغسلن بَالميرمَيّة والطيب ليلَتها
ثمّ يعجنّ بالحبقِ الناشفِ الصدرَ
والإبطَ
والساحلَيْن

ويأخذنَ لـ«الصمْدَة» الغصنَ
والموجَ والمَركبيْن
ويطبعنَ، قبلَ الدخول، على قوسِ أحجارِها،
قبضةً من عجين الحليب،
ويَسْكُبنَ ماءً علَى خطوها،
ثم يمضغنَ قبلَ الذهابِ
إلى رعدة الأخْذ
ليمونةً منَ شتاء قَريب،
ويحملنَ حنّاءَهُنَ المُدمّى
على الكفِّ والظَهْرِ والكاعبيْن.

كانت النسوةُ الأمهات
يحملن منديلَ ليل الزفاف،
وينعفنَ زغرودةً للَضفاف،
ويذبحنَ كبشاً وطيراً،
ويَسْحَجْنَ عُمْراً،
إلى أن يطلَّ، بنعناعه، الطفلُ
فوقَ اليديْن.

كانت النسوةُ الثاكلات
يخلعنَ اسوارةَ العُرْسِ
والعقدَ والخاتمَيْن

ليَبتاعَ بارودةً للقتال
وبعد ثلاث ليال طوال . .
ومعركة فيَ التلاَل ،
يعودُ الرَّجال ،
وثمّةَ مَنْ لم يَعُدْ
. . ظلّ ينتظرُ النسوةَ العارفات !

*

ماتت أمي ، ولم آخذها إلى يافا ، حتى لا يحتشد قلبها ، وتنفجر رمانة صدرها ، لأن يافا لم تعد هناك ، لقد أصبحت خرائب منكسرة وبيوتات مُرهقة ومحلات خاوية ، كأن يافا تختصر سيرة المَظْلمة ، وتقدم مشهد النكبة كاملاً ، ودون مبالغة !

لقد ماتت أمي صبيحة يوم التاسع من نيسان 2001 ، يوم ذكرى مذبحة دير ياسين ، وعشية معركة القسطل ، كأنها - رحمها الله - ظلت تحمل غصّة الخبر المروّع ثلاثة وخمسين عاماً ، وأرادت أن تلتقي أرواح المذبوحين في ذكرى ترويعهم وبقر بطونهم واتساع جروحهم وسحجات صدورهم ، أو كأنها تريد أن تشحذ الحزن وتبعثه فينا ، لنعرف طعم اليُتم ، ومعنى أن نهيل التراب بأيدينا على مَنْ نحب .

اليتيم يتيم الأم ، لأن الإنسان يظل طفلاً حتى يفقد أمّه ، عندها يشيخ ويهرم ويكبر فجأة ألف عام . ويكتشف ، مرة واحدة ، أنه كهل ، وأن له أبناءً كبروا وطاولوه ، وأنّه لم يبق من العمر أكثر مما مضى ! وربما لا يتغضن

وجه اليتيم، لكن قلبه يتجعّد، وتأخذ ملامحه بالغروب، ولو كان مَصوغاً من تبرٍ وأرجوان.

*

«تخيّل، لقد دفناها بأيدينا، وعندما أصعد درجات البيت لن أجدها»، قال أحد أشقائي وراح يبكي كأنه لا يصدّق موتها.
الحاجة عفيفة «عفّو» عندما كنّا ندلّعها حتى آخر أيامها فتنسكب ضحكتها المرتاحة، كانتَ مرهونة للبكاء الهادئ.
من أين تأتين بالدمع يَمّا؟ ولماذا؟
عندما يُرزق أحدهم بمولودة أنثى كانت تبكي. وعندما تسمع بموت أحدهم، آخر البلد، كانت تبكي. وعندما يتأخر المطر كانت تبكي. عندما كان يسافر أحدنا أو يُعتقل كانت تبكي، وعندما يعود كانت تبكي. كانت تبكي وهي تشاهد المسلسلات التلفزيونية. وتبكي إذا جاء العيد، أو هلّ شهر رمضان. وإذا تزوّجت حفيدتها تبكي، وإن جاءها المخاض تبكي. كانت تعتقد أنها بدموعها تناصر المغلوب والمصاب، وتشارك الفرحان فرحته، وقلّما حرّكت شفتيها وهي تبكي، لكنها أحياناً كانت تقول: الله يعينها، أو الله يعين أُمه، كان بكاؤها خفيفاً طاهراً، وغالباً ما ينتهي بضحكة صغيرة تقنع بها مَنْ حولها بأن بكاءها طبيعيٌّ وواجبٌ لا بد منّه.
لكن بكاءها كان يمتد ويطول ويصبح ضارياً ومؤلماً عندما تذكر يافا وبيّارات البلاد وأيام السَعْد هناك، أو عندما تسمع بخبر استشهاد أحد

الشبان الاستشهاديين الذين يفجرون أنفسهم. كانت تبكي على أشلائهم، وتخاف عليها من النجس والعري والحرمان من الدفن، كانت تعتقد أن الأعداء يرمون أشلاء الشهداء في مكبّات النفايات للجرذان والقطط الضالة، وتبكي.

لقد اعتدنا على بكاء الحاجة عفيفة، لكن الغريب أن رموشها الطويلة كانت تزداد طولاً ولمعاناً، كأنها كانت تسقيها بهذا الدفق الحنون، حتى بقيت حزمة السنابل السواء شاهدة على عينيها المصقولتين اللتين تترجرجان بذلك الماء الزجاجي السهل، وبقيت الحاجة عفيفة معافاة ناشطة، محافظة على عاداتها، كارهة كل التقنيات الجديدة وكل الأجهزة الحديثة، فهي لم تستعمل «الشامبو» ولم تصبغ شعرها، وظلّت تمشطه أو «تكدّه» بمشط العظم المسنّن من جهتيه، وكانت تفرك أسنانها بالملح، وظلت مخلصة للصابون النابلسي، وتلوك الزعتر عراق والميرمية لتطيّب أنفاسها، مثلما تنصح النساء من حولها بوضع الحبق الجاف الملفوف بقطعة قماش خفيف فوق أماكن الجسد أو فركها بورق الليمون الطري بعد الاستحمام، أو استعمال حزمة من الشجّيرية (الميريميّة) لتلييف الجسد بدل الليفة أو الاسفنجة. وكانت الحاجة عفيفة لا تثق إلا بالدنانير، بل تعتبر الشواقل (العملة الإسرائيلية)، مثلاً، عملة غير محترمة ولا تساوي شيئاً، ولا يمكن أن «يحوّشها» الإنسان العاقل.

كانت تحبّ المرأة المدبّرة غير المبذّرة، وتكره الرجل البخيل أو العنيف الذي يضرب بناته أو يشتم زوجته وتعتبره «مُش زلمة»، لأنه «يتشاطر على الولايا» مثلما كانت تنفر من الرجال الذين يحلقون شواربهم، ومن النساء اللواتي يبالغن في المكياج ووضع الأحمر والأخضر للرايح

والجاي!
يطيبُ لها أن تفترشَ الدرَجَ الحجريَّ،
وتكشفَ للشمسِ اللوزيةِ ما بقي من الشَعرِ،
قبل قليلٍ غسلته بزَيت الصَابون الأبيض،
- والماءُ يَضفضفُ بينَ أصابعهاَ والشيبِ -

تجفّفه وتمسّدهُ، وتقول:
السنواتُ السبعون أخذنَ الخروبةَ،
والظلَّ الطاغي،
والسحرَ المنثورَ على الكتفين،
وأبواب جفوني
.. كنتَ أُضَفِّرهُ قبل هزيعِ الرعيانِ،
وأمضي للخبز وأعمالِ البيتِ،
فلا يلحظ أحدٌ
أنّي أسقيتُ ظلالي المفتونةَ
أنفاسَ جنوني.

سامحها اللهُ الأيامَ،
أخذنَ اللمعةَ من وجهي،
ونفورَ الإبريقين،
وزهرةَ كأسي، وَعيوني.
.. وما ظلّ سوى المشط،

أَكدُّ به القُذُلات الشائبةَ،
ولَكنّي، قبل العَيد بيومين،
أُلبِّدُهُ بحجاز الحنّاء،
وأكْمُرُهُ بالشَال الجَمَلوني،
عسى أن تفهقَ خصلاتي بشعاعٍ
. . قبل ظنوني .

وتروحُ بمشط العَظْم،
على مقعدهاَ الأَملسَ،
تحرثُ، بهدوء، شَيْبَ الرأس المبلول،
. . فتحملُ أسًنانُ المشط الشَعَرَ الواهَنَ،
-وكعادتها- تَجمَعهُ بأصَابعها،
وبإحدى الشَعرات تلفّ العُشَّ،
ثمّ تغافل مَنْ ينظرهَا،
لتخبئ بين شقوق الجدران الحجريةِ،
ما أخرجهُ المشطُ مَن الرأسَ،

وتموتُ الماشطةُ،
وتغسلها النسوةُ فوق التذكرةِ الخَشبيةِ،
أو طاولة غسيل الموتى،
فتصيحُ شَقوقُ البيتِ:
خذوني .

كيف قبلت الزواج من أبي - رحمه الله - وهو أكبر منك بثلاثين سنة .
تقول لي أمَي : لأنني كنت متيقّنة من أنه سيأخذني إلى يافا . .
كان بإمكانك أن تذهبي مع أبيك إلى هناك !
تقول : لم يكن من عادة الآباء اصطحاب أبنائهم ، وبالذات البنات ، إلى «شم الهوا» أو إلى أي مشوار ، ثم كان أبوك أنيقاً شاباً . .
وهو في الخمسين؟
تقول : لم يكن في الخمسين من عمره ، بل أقل بكثير ، ثم إنني «شفقت عليه» ، لقد كان خارجاً من سجن عكا ، بعد أن أمضى سبع سنين معتقلاً ، وكان أرمل غنياً ، ثم إن أبي -جدك- رحمه الله أجبرني على الزواج منه . . الله يسامحه ! ! ثم ماذا تريد الواحدة منّا ! لقد أعطاني كل ما أريده ؛ أولاداً وخيراً كثيراً ، ثم كان أبوك حنوناً كريماً إلى حد التبذير ، لقد عشت معه أكثر من عشرين عاماً كلّها عسل ولوز ، وكان يجلب لي من يافا ، كل شهر ، هديّة ؛ مروداً أو عطراً ، أو اسوارة ، أو أكْلة حلو ، أو «مشاوي عالفحم» ، أو عباءة . .
أو ماذا يا «عفّو»؟ !
تضحك ، وَتذهب إلى هناك ، وتغيب عنا وهي جالسة بيننا ، وتبرق عيناها بالزجاج الرخو ، بهدوء رسولي عميق .
بعد المَوْسم
سنبيعُ حصَادَ العام ،
ونخطبُ بنتَ عناةَ ،
تلكَ الفرسُ الممشوَقةُ
من قصَبِ السُكّر ،

مَنْ تحملُ جرّتها بالغيّ
على درب العين،
فتتبعها الغَزلانُ المكحولةُ،
عند مغيب الشمس،
وتوقظُ قريتَنا بالخَالَ
وغمّازات الخوخ،
وتبقى في عَلّيَّتها
بين الحنّاء ونارنج النار،
تهادي النجمَ حليبَ الماس.

سنخطبُ بنتَ عناة لمحمَّد،
هذا الولدُ الصاهلُ
في برِّ الزيتون،
الفائضُ بالأجَراس،
الماسكُ عنقَ النرجسِ
في رمْشيَه،
السابَحُ كالفهد
على قمح الودَيان،
الراعفُ بالمنديل
على بيدرنا المطهَمِ
بالأنفاس.
سنقيمُ الأفراحَ،

ونحرقُ قرْنَ العجْلِ الأدهم،
نذبحُ أولادَ النعَجاتَ الستَ،
نضوّعُ، بالمسك الفوّاَح،
بيوتات العاج السوّاح،
وساحَ اَلقريةِ والحُرّاسَ .

سَنُضيء الليلةَ تلو الأخرى
بالدبكات،
وبالآوووَف المذبوح
على خاصرة الأسحَار،
ونُعلي الزفّةَ َبالخيلِ الزَاخرة
بسرِّ السحر، فترميَه
بريحانِ اللهفةِ أمُّ الفَرحةِ والأفراس .

سأدعو الطيرَ
وأبراجَ الغيم،
وبيارات الحنّون،
وزهرَ النَحل،
وسوقَ البلدَة، والأقواس.

سأصبُّ السمنةَ فوق الأرض،
وأسقي الصخرَ الشايَ،

وأسكبُ هالَ الدلّة في الطرقات،
وأُنْدَهُ كل الناس إلَى السامرِ،
كل الناس

*

وباعَ حصادَ العام،
وجاء الناس إلى بيت الشيخ،
وخلف السهل الموكبُ، ودماءُ الأعراس.

كانت أمي -مثل أهل زمان- تعتبر ذهابها إلى يافا قبل النكبة، أو إلى القدس للصلاة في الحرم، بضع مرات، سفراً بعيداً، كانوا يستعدّون إليه ويودّعون بعضهم قبل أن «يخطروا» إلى تلك المدن، وبعد عودتهم يظل سفرهم هذا مدار حديثهم عدة أسابيع، ثم كانوا يعرضون الهدايا التي جلبوها من هناك لكل مَنْ يأتي للسلام عليهم وتهنئتهم بسلامة العودة، كانت الأرض حينذاك صغيرة، وأفقها القريب بعيداً إلى حد السذاجة والاستغراب.
أما عقد الذهب العسملّي الذي كانت تضعه الحاجة عفيفة على صدرها، في المناسبات، فهو عبارة عن اثنتي عشرة ليرة ذهبية رشيدية، اشتراها زوجها من عند «المسيحي» أبي حنا، من «نُصّ يافا» قبل ما تروح البلاد بسنتين، وكانت الحاجة تتحسس عقدها كأنها تمسّد حبّات برتقال يافا «الناصح»، أو تمسح حبّات الشتاء عن زهرة ليمون تضوّع الأرض بأريجها الأخّاذ.

ربما عرفتُ لماذا أصرّ والداي -رحمهما الله - على زرع بيارة برتقال في أراضينا شرق قلقيلية، بعد النكبة. كأنهما يريدان أن تحمل قلقيلية عن يافا بياراتها وأراضيها الممرعة العطرة التي أخذها اليهود. لكن أمي كانت تفضّل تناول البرتقال بعد تقشيره، وتكره عصير البرتقال! والسبب أن أحد أخوالها، واسمه «أبو زهدي»، كان يملك بيارة وبئراً ارتوازية بين يافا والرملة، وكانت له «حسبة» خضار في يافا، يبيع فيها برتقاله وخيرات المواسم الباذخة. ولمّا وقعت النكبة هاجر أبو زهدي هذا إلى قلقيلية، وحرّم على نفسه أكل البرتقال أو شرب عصيره ما دامت البلاد تحت الاحتلال، لكن أحد الشبان تآمر على أبي زهدي ولم يكن يقصد أن يؤذيه. لقد صبّ عصير البرتقال في إبريق الفخّار الذي اعتاد أبو زهدي الشرب منه في الصيف، وما إن وصل العصير إلى جوف أبي زهدي، حتى نزل كأنه السمّ الزعاف، ونقلوا أبا زهدي إلى المشفى، وضاقت أنفاسه، ولم يلبث يومين حتى مات.

*

كانت أمي تقول: لولا رحمة الله لسقطت قلقيلية مرتين في أيدي اليهود! فالمرة الأولى عندما أطبقت العصابات الصهيونية خناقها على المثلث الفلسطيني (جلجولية، الطيرة، الطيبة)، وهي قرى تحيط بقلقيلية من الشمال والغرب والجنوب، ولا يبعد بعضها عن قلقيلية مسافة ثلاثة كيلومترات، وتتصل أراضي هذه القرى بأراضي قلقيلية التي راح معظمها مع النكبة، حيث خسرت قلقيلية أربعين ألف دونم زراعياً خصباً، من أصل خمسين، عندها هاجر بعض أهالي يافا إلى قلقيلية، فيما وصل

معظم أهالي قرى كفر سابا ومسكة وخربة عزون وسيدنا علي وملبّس والعباسية وراس العين إلى قلقيلية، أيضاً، فاستقر بعضهم فيها، وواصل الآخرون هجرتهم شرقاً وإلى كل الجهات. والمفارقة أن أهالي قلقيلية، عندما وصل اليهود إلى قرى المثلث واحتلوها، حملوا أنفسهم وهاجروا شرقاً بضعة كيلومترات إلى منطقة تسمى «حنيش»، لكنهم لم يطيلوا فيها المقام، وعادوا إلى بلدتهم بعد أقل من أسبوع.

أما المرّة الثانية، فكانت ظهيرة حرب حزيران 1967 عندما هاجر كل أهالي قلقيلية شرقاً، وعادوا بمعجزة بعد شهر إلى بلدتهم، بعد أن كان الاحتلال الإسرائيلي قد هدم وحرق أكثر من ثمانين في المئة من بيوتها، حيث كانت تنوي إسرائيل هدم البلدة وتسويتها بالأرض، لاقترابها وتداخلها مع حدود أراضي 1948، كما فعلت بقرى اللطرون (بيت نوبا، وعمواس، ويالو).

*

أمشي خلفَ السرب الهارب، محمولاً بالخوف إلى الجبل المفتوح، صغيراً كنتُ، أرى أمي تلهثَ خلفَ أتان تحمل بعضَ فراش البيت، وخالي يمسكها من كتف مال مع الأحمال، وأبي كان يخبّ كأنّ الطائرةَ تلاحقه، لكنَّ الجارحةَ تدفّ قريباً، ترسل شارتَها المكتوبةَ كي نمضي شرقاً، وتصيحُ امرأةٌ برجال مكسورين، تعالوا: فيجيئون على خوف مرتبكين. تعالوا: غطّوا هذّي الزيتونةَ بشراشفَ حتى تُلقي هذي المرأةُ طفلّتها. وتصيحُ المرأةُ من أوجاعِ ولادتها، فتناديها امرأةٌ أخرى أن تسكتَ

حتى لا تأتي الطائرة على صيحتها . . هيّا حُطّي حَمْلَكِ في البرّ المحروق، وقومي لا وقت لهذا النرجس!
قامت، وبقايا الصوف الدامي يقطرُ فوق تراب محروث . . ومشينا، والمولودةُ، بعد قليلٍ سوف تموتُ - يقول الشيخُ اللاهث - لكنّ المولودةَ هاجرُ غبّت من حلمات الوالدة حليباً دفّاقاً . .
بعد سنين، كانت هاجرُ تلعب بَحجارتها المائيةِ بمخيمها . .

*

كَمْ سرنا في «واد النبع»، على ظلّ البلّوط ووخز النتش وريح الكيكر والسريّس، حملَنا المفتاحَ، وقُلنا للرمانة: سُدّي أخشابَك، بعَد قليلَ سوف نعود . . وها نحن على أحلام العودة، بعد عقود نصحو، لتبادلنا هاجرُ لعبتنا المائيةَ في ليلِ مخيمنا المذبوح . انطفأت نَارُ الموقد حتى لا نأخذ منها قبساً، لنرى هاجرَ في وثبتها المحمومة، في ليلِ الحارات المفتوح!! هنا لا بُدّ من الإثمدِ لندقّ الأحجارَ خيوطاً سوداءَ وهالاتٍ للدمع المسفوح . .
يا هاجَرُ، كان المَوتُ بلا شاهد إثبات حتى نرجعَ للبيت، وما كنت ترين الأشجارَ الغربيةَ في مشيتهاَ الهادرةِ لتذبَحنا، كانتَ أحزانُك فَاكهة القُربى، ورضينا بالدمع وسلسلة الأحزاب، فما عدنا لنرى الإثمدَ أو عينيكِ، أو لترى هاجرُ نَعشَ الأزواجِ يسيرُ عَلى مرأىً من وثبتها.

*

كُنّا سبعةَ أبناء لأب حزّت أجنادُ الرعب ملابسَه الصخريةَ، قالت أمي: كان النجمُ يروِّحُ بعًيداً حتى لا يبقى منَ فضته شيءٌ، ويعود ليغفو فوق جبين الشيخ، وكانت بيارتُهُ البحرَ الأخضر قرب البحر، وقبلَ النوم يُمسّد شهدَّ رقابَ الخيل، ويُعطي النجمَ حكايتهَ المعهودةَ، فينامُ كطفل أتعبه السيرُ وراءَ النحل، ولمّا سرنا ذاك اليومَ -وتبكي- حطّ السيرُ بناً، في تلك الخيمة، راحِ الشيخُ، وما ظل بسحنته غيرُ الصبار وصخر الصلصال.. وأذكرُ أني لم أسمعْ أبتي ينبسُ أو ينَهْرُ أو يتذكّر، كان كما التمثال المحمول على قدمين.. وراح الشيخُ من الصبر إلى القبر.. وأمي تنعفُ فَوقَ الطرَحةِ رملَ الحسرةِ، وتنادي شجرَ الساحلِ في دمعتها.

*

وتوزّعنا مثلَ دخان الغيم، فَمنّا مَنْ جابَ البحرَ، ومنّا مَنْ حملَ الغابات لعاصفة الجمر، ومَنّا من خلعَ الأثوابَ وشقَّ الصدر، ومنّا مَنْ راحَ إلىَ يأس القَبر، َومنّا مّنْ قيّده القصر، ومنا مَنْ غنّاه الطيّونُ وغارُ النصر، ومنّاَ مَنْ ظلّ على النصل يشقُ يباس الصخر بمحراث النهر.. وراحت راياتُ الكوفيّة تعلو في َسنبلة النار وإنشاد َالأسْر.. إلى أنّ ردّ المقلاعُ نداءَ الأوّابين لدار الفجرِ.. يمدّ النورَ ُبعتمتهَا..

*

ما زلنا مشروخين كجذع التينة، والأطفالُ من الشَجن يعودون إلى سحر الرُمّان القاتلِ، وسيبكيَ النايُ مراراً قرب الشلال، وتحكي الجدّاتُ أَمامَ

بيوتات الحزن المشهدَ مرات أخرى، ويكون التفاحُ الآسرُ شهوتَنا المصقولةَ، هذي أقدارُ الأرضِ، فمَنْ مسّته فللموت الناصعِ وجهتهُ، أو زيّنها، فالعُرْسُ إلى يومِ الحشْرَ، نعوشٌ لمنازلها.

*

وستبقى أغنيةُ الأسوارِ، إلى أن يرثَ الطفلُ التلّ وثوبَ الزفةِ في فرحتها.

*

وقد شهدت قلقيلية العام 1956 عملية نسف مبنى «العمارة» التي كانت تقع شمال المدينة، حيث تسللت عصابة عسكرية صهيونية، وقامت بتفجير المبنى بمَنْ فيه، ليلاً، ليستيقظ أهالي قلقيلية مع سقوط سبعين شهيداً قضوا في العملية الغادرة. كما قامت عصابات يهودية أخرى بنسف ست آبار ارتوازية ومحطتي الوقود في البلدة خلال العامين 1964 و1965م. كما يتذكر أهالي قلقيلية كوكبة من الشهداء الذين وقعوا ضحايا الرصاص اليهودي، وهم يهمّون بالتسلل إلى الدولة العبرية، الناشئة آنذاك، لتنفيذ عمليات ثأر ضد مَنْ أخذوا أرضهم وطردوهم منها.

*

ماتت أمي وهي تحتفظ «بالكواشين» الأصلية، في علبة معدنية، تضعها بعيداً عن الأيدي والعيون، في خزانتها، وفي تلك العلبة تضع عقدها العسملّي، وما تيسّر لها من نقود ورقية. وفي السنوات الأخيرة، كانت توصينا بالكواشين، حقّنا في فلسطين، أكثر من مئتين وستين دونماً تمتد من شمال جلجولية حتى جنوب غرب قلقيلية، في منطقة اسمها «مارس السعيد»، والسعيد، بالمناسبة، هو زوجها أو والدي سعيد البكر ابن صالح طه بن نزّال الممتد نسبه إلى الشيخ علي الغمري بن الشيخ عبد الدايم، الذي تسمّت باسمه قرية الدوايمة غرب مدينة الخليل، والمنتمي إلى الأشراف -هكذا تعتقد العشيرة- (مع تشكيكي الكامل بهذه الرواية)، والأشراف هم أحفاد أبناء الحسنين ابنيْ علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه.

*

ورحم الله أحمد بن الحسين الجعفي الكوفي الشاعر المتنبي الذي قال (وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام)، لأنه صدق في قوله هذا، حيث رفض والدي سعيد بكر طه نزّال، دون أهالي قلقيلية، أن يتسلم «كرت اللاجئين» الذي تم توزيعه من «الأونروا» (وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين) على كل أهالي قلقيلية «دعماً» لهم على خسارتهم أرضهم التي نهبتها الدولة الجديدة، وسبب رفض والدي هو أن الأشراف لا يجوز لهم أخذ الزكاة من المسلمين أو قبول صدقاتهم، فكيف لهم أن يتقبّلوا صدقات الكفّار المتآمرين على فلسطين؟

يافا -أم القرى- والبلدات المحيطة بها ندّاهة تغوي الجميع؛ من رآها أو سمع عنها، كانت مدينة تحرس البحر وتسامره فلا ينام، حتى لا تتركه وحيداً مستوحشاً، أو حتى لا يتسلل إلى البيارات ليلاً فيمتصّ رحيقها ونسغ قناديلها الذهبية، ويعود عذباً يزيد عطراً وزهراً، بعد أن يترك الشجَر ضعيفاً كابياً.

ربما فعلها البحرُ مرّة، فاكتسب حلاوة البرتقال وعذوبة عسل زهره الضوّاع، فصار الماء الأجاج سُكّراً، لهذا قال الناس: ملح يافا حلو.

في فيروز الشهد، غمست أمي ساقيها، وانفتح البحر أمامها منصة زرقاء لا نهائية، وكانت شاشة السماء تطرّز غيومها البيضاء الخفيفة طيوراً من قطن وخيال.. وما إن عادت ذلك المساء إلى قلقيلية، حتى أحسّت بأعراض الحمل، وأن ثمة نطفة مائية تكبر في رحمها..

لقد كان البحر!!

أزهر وجه «عفو» فرحاً، ستلد نهراً أو عروساً تلتقط لها حبات اللؤلؤ من القيعان الزرقَاء، لكن وجه أبي، الذي عَلمَ بأمر الحَمل، ظلّ على حاله صلباً محايداً، أقرب إلى التجهّم والحزنَ منه إلى الفرح والحبور. ولم يخالجه شكٌّ بأن زوجته امرأة عادية قابلة للحمل الطبيعي أو الإجهاض أو العُقم. وانتفخ بطن الحامل، وبدت عليها ملامح الوهن والإرهاق.

وفي منتصف شهر أيـــار من العـــام 1948 استيقظت الحامل، وكم كانت دهشتها من أن بطنها عاد كبطن الغزالة دون نتوء حمل أو علامات ولادة، لقد كان الحمل كاذباً! وراحت أحلام العروس، لكن المرأة ظلت قادرة على الحمل والولادة.

طهارة الصمت

عن الكتابة وهموم الثقافة

رام الله 2000 - 2001 م

طهارة الصمت

طقوس ولادة القصيدة

«1»

ما بين الكتابة وطقوسها وشائج قوية، أو قل، إن الكتابة وطقوسها مترابطان بشكل يستدعي كلاً منهما إذا حضر الآخر، وكأن الكتابة بهذا المعنى لا تتكامل إلا مع خارجها، ولم لا، فالكتابة على ذاتيتها هي استحضار «الآخر»، أو استدراج الخارج عن طريق إخراج الداخل.

والمسألة ليست مسألة ترف، أو عادات برجوازية، أو حتى نوعاً من الاستعراض، الطقوس المختلفة من أجواء وألوان وروائح وملابس وأصوات تركز «الحالة» وتدفع بها إلى أقاصيها وذراها، والطقوس أيضا محفزّات بالمعنى السيكولوجي للكلمة، وهي مجموع «الأنا» المتعدد والمتشكل والمنضبط ما بين غرائزية معتمة تنفلت ومثالية تتشوق إلى الذوبان.

والطقس مثل القصيدة، باعتباري نقطة التقاطع بينهما، وبميلاد القصيدة يتولد «متجه» آخر هو نتيجة أو محصلة القوى الحاضرة والضاغطة .

وقصيدتي تلد في طقوس أحرص عليها كل الحرص، وأتقصدها كل التقصد، وأعمد إليها كلما انتابتني تلك «الحالة» التي أعرفها، فأكاد أطلب من مكاني أكثر من النظافة والترتيب، وأطلب الصمت العميق، العميق، وأتهيأ «لها» باللباس اللائق والطهارة بمعناها الجسدي الحرفي.

وبهذا المعنى، فإنني فعلاً أتصرف وكأنني على موعد مع ضيف عزيز، أو كأنني لا أرغب في أن أستحضر الشعر إلا بلياقتي، وكأنني لا أرغب في أن يحضر الشعر وأنا غير مستعد له أو بغير ما أحب أن يلقاني، مع العلاقة بين ميلاد القصيدة وكل هذه الترتيبات التي تكاد تقترب من الغريزة

الطبيعية أو بالأحرى المكتسبة .
هل لأن هناك إرثاً طويلاً وعريضاً عن «إلهامية الشعر» أو «ألوهيته» ؟
هل لأن الشعر كلام خاص يقوله أناس خاصون ؟!
هل كان ذلك لما للشعر من قدرة على نقل أو جر الشاعر من حالة عادية إلى أخرى غير عادية؟!
لا أدري بالضبط، كل ما أدريه أن قصيدتي تحب أن تلد في جو مختلف، يرفعها من مجرد استقبالها في المطبخ أو الفناء الخارجي، وأنها ترغب برائحة خاصة ومكان خاص .

«2»

كيف تبدأ القصيدة ؟
أقف الآن مستجمعاً كل ذرة من تركيزي الذهني لأتابع ملايين أو بلايين المرات التي طاف شيطان الشعر حولي أو رفرف في مخيلتي .
وشيطان الشعر هذا قد يكون كلمة عابرة قالها بائع خضراوات أو سائق سيارة، وقد يكون وجهاً جميلاً لامرأة تدخل عامها الثمانين، وقد يكون صوتاً عميقاً أو دافئاً أو مجلجلاً، وقد يكون لحناً يأخذ بمجامع الجسد ليرميه في أتون من جنون الحركة أو الحرية، وقد يكون رائحة لطيفة تمر على الجسد والروح فتوقظهما، وقد يكون شعوراً قوياً دافقاً يجعل الدموع تطفر من العينين، وقد يكون كل مؤثر له قدرة على تحريك شيء ما في دواخلنا .
شيطان الشعر هذا خفيف، ناعم، هوائي، إنه يشبه رماداً ناعماً جافاً، يتحرك لأبسط وأقّل من نفحةٍ لطفلٍ في الثانية من عمره .

وهكذا، فإن ميلاد القصيدة يبدأ غامضاً، وبعيداً، ومبهماً، غير محدد المعالم ولا واضح القسمات، تبدأ القصيدة بكلمة أو رائحة أو إيقاع، أو حتى مجرد رغبة طاغية بالقول أو التعبير - أعتقد أن هناك في قلب كل فنان رغبة صاعقة بالتعبير تعكس ميله القوي للمشاركة- .

الإبهام الأولي هذا يتجمع ويحتشد، ويتركز ويتحدد بالمثيرات من جهة والحفر تحته من جهة أخرى، وذلك بتذكره، واستثارته، وعرضه واستعراضه في لحظات كثيرة في اليوم الواحد، وادّعي أن هذه الفكرة المبهمة تدهمني في لحظات السهو أو لحظات التأمل أو - وهذا من العجيب - في لحظات جيشان الشعور غضباً أو فرحاً .

وبتكثف العمليات المحيطة بهذا الإبهام، يتحدد الاتجاه، اتجاه الشعور على الأقل، تصبح الفكرة - على عدم وضوحها - أكثر صلابة، إذ تتجمع أفكار أخرى مشابهة، تتجاذب فيما بينها بالتشابه أو التناقض، أو تتناسل الفكرة الأولى عدداً من الأفكار الجزئية المرتبطة بها إسناداً أو نقضاً، ربما كان من غير العلمي أن أسمي هذه الآليات اسم فكرة، بالمعنى الحقيقي، فمن الواجب، وتحرياً للدقة، فإن هذه «المشاعر» تبحث عن «أفكارها» وليس العكس، فالمشاعر الغامضة تحب أن تتسمّى.

وبتسمية المشاعر، فإنها تتوزع بطريقة اقرب إلى المنطق، بمعنى الترتيب، التقديم والتأخير، الأولى فالأولى، الأهم فالمهم فالأقل أهمية، ولكن هذا لا يريح ، أيضاً، إذ لا بد من المراجعة، والمقارنة، والمقايسة، والاستحضار، والمقابسة .

وهذه عمليات واضحة، فالقصيدة -عملياً- ليست بنت واقعها فقط، إنها نتاج طويل من الخبرة الشخصية والجماعية، الفردية والجمعية،

«الأنوية» و«الأخروية»، القصيدة فيها «الآخر» حاضراً، شئت هذا أم أبيت .
وفي حالة بقاء «الدافع» قوياً ومسيطراً، وفي حالة أن تم الرضى بين هذا «الدافع» من جهة، وباقي الإحالات من جهة أخرى، فإن القصيدة تكون مهيأة وناضجة .
وحتى تكتب القصيدة، فإن «حالة» ما يجب أن تتوفر حقاً لكتابتها، وهنا، نحن لا نتكلم عن شيء لا يمكن لمسه أو الإحساس به، «فالحالة» هذه تشبه الكآبة إن لم تكن هي، وتشبه الحزن في حالات هدوئه إن لم يكن هو. «حالة» الشعر حالة خاصة، ليست غضباً ولا فرحاً، ولكنها جيشان شديد، قابض، موتّر، منطو ومتجهٌ إلى الداخل. وهكذا أدخل إلى كتابة الشعر تحت تأثير عجيبٍ من هذا الانعزال والانطواء الشبيه بطغيان الكآبة أو حديد الحزن.
ولكن، هل كنت دقيقاً في الكلام عن القصيدة وميلادها بكل هذا الوضوح وهذه النصاعة؟ هل حقاً تتولد القصيدة ضمن هذه الترتيبات التي تبدو مرتبة ومنطقية إلى أبعد حد؟
وهل يمكن إضاءة العتمات السحيقة التي تختمر فيها القصيدة؟!
الحقيقة، أو للحقيقة، فإنني أبدو مبالغاً في الكلام بهذه الدقة، إذ إن القصيدة في بعض الأحيان تنفجر انفجاراً، كسدٍّ فاض فجأة بما يحجز خلفه، وأقول تنفجر، لأنها الكلمة الأكثر مناسبة في هذا المجال، إذ تنبجس القصيدة مثل نبع مرة واحدة، مختارة شكلها ولغتها وإيقاعها دون تمهيد أو تهيئة أو اختمار .
وأكثر من هذا، فإن ما كان مبهماً منذ البداية، واتضح مع الوقت، يلد

مختلفاً تماماً عما كان في البداية، أي أن كل «العمليات الواعية» تتحول إلى نتائج أخرى لحظة الولادة - وهذا من أعاجيب الشعر -، فما نرتبه للقول بوعينا، يلد غير ما أردنا في لا وعينا، وهذا يحدث كثيراً. وكثيراً جداً.

وكما يبدو، فإن المسافة التي تفصل القصيدة بين مشروعها الأولي ولحظة ميلادها مسافة خطرة جداً تتحدد فيها الاتجاهات النهائية والأشكال النهائية، هذه المسافة الأخيرة التي تحول القصيدة من مشاعر ورغبات إلى كلمات على الورق مسافة تجري فيها عمليات لا يمكن رصدها أبداً، ولا يمكن التحكم فيها، ولا يمكن أيضا معرفة ما الذي يحصل حتى تنقلب الأمور رأساً على عقب.. هل هذه المسافة هي التي قال عنها الفرنسي فوكو «هي ما لا نعرف عن الشعر».

«3»

هناك عمليات واعية في الشعر، وهناك حالات فيزيائية ملازمة لقول الشعر أو اجتراحه، إذ يمكن ملاحظة الكآبة أو الحزن أو الجيشان الشديد والتركيز العالي للمشاعر على صورة توتر الجلد وخفة الجسد وتنبهه، ويمكن أيضاً بالطريقة ذاتها ملاحظة العمليات الأخرى المرافقة التي تتحكم في شكل التعبير ووزنه وكتلته وحجمه واختياره.

إن العمليات الواعية لقول الشعر تظهر واضحة أيضاً في كثير من تضاعيف النص وأجوائه، ومن هنا، فرق العرب بين نوعين من الشعر: المطبوع، والمصنوع، في إشارة إلى من «يكتب الشعر» أو «يكتبه الشعر».

وأدعي هنا بحق أنني أنتبه إلى هذه النقطة تماماً، بمعنى أن القصيدة التي أشعر أن «غيري» كتبها هي قصيدتي بحق، في حين أن القصيدة التي أحس أنني كتبتها أنفر منها وأحاول أن أخفيها . . والشاعر يدرك ذلك بحدسه قبل ناقديه أو قارئيه، وحتى لو حازت القصيدة المصنوعة على إعجاب الناس، هناك بوصلة أخرى في نفس الشاعر . . بوصلة تعرف وتشير إلى الحقيقي فقط .

«4»

جزء آخر من العلاقة الواعية بالشعر هي الاحتشاد له عن طريق القراءة والاطلاع .

القصيدة، وكما أسلفت، هي عمل فردي حقاً ولكنه يتضمن كل ما فعله «الآخر» بي . . وكل ما تركه لي . . القصيدة تنفتح على التاريخ من جهة والعالم الموضوعي من جهة أخرى . . القصيدة محصلة قوى روحية ونفسية وتاريخية، وبهذا، فإن الاطلاع المعرفي يشكل لي دعامة حقيقية وركيزة قوية لقول الشعر .

القراءة حث واستثارة ونقاش صامت مع الآخر، ومنها وفيها، تتحرك القصيدة باحثة عن نقيضها . وأعتقد أن القراءة هنا – وبهذا المعنى – تمنح القدرة على الامتداد والانتقال والحوار والمعرفة والتأمل والنقض والتعزيز والحذف والإضافة والاستقراء . . والكلمة المقروءة خير وسيلة للانتقال من المحسوس إلى المجرد على عكس الصورة تماماً التي تورطنا بالمحسوس فقط . . والشعر لا يكتفي بالمحسوس، وفي معظم الأحيان

لا يكتفي به فقط وإنما ينقضه، ويخلق محسوسات أخرى بعلاقات أخرى.

«5»

ومن كلامنا السابق، فإن الشعر بهذا المعنى يوضحني، بمعنى أنه يؤطر رغباتي، ويسميها، ويصلّب مشاعري بإعطائها ما تستحق من كلام، وتجعل مني موسيقى وايقاعاً يناسب ما ثار في نفسي .. هل هذه هي «راحة الشعر»؟! الشعر هنا يوضح تأملاتي، يجلي ما استعصى عليّ من الشعور، ويظهر ما دق وخفي من ذلك الألم الضاغط في الصدر .. الشعر يفتح لي فضاءات ناعمة ورخية «للقول» الحر السلس دون اعتبار للبروتوكول أو القواعد أو المحاذير.

الشعر يوضحني لأن قيوده مختلفة وقوانينه قوانين أخرى، ويسمح لي -وربما هذا هو الأهم- أن أقول أشيائي كما أريد، وكأن الكلام العادي لا يكفي -وهو لا يكفي حقاً- وكأن كل القول الذي قيل لا يؤدي نفس المعنى الذي أريد، ولهذا «اخلق» كلامي تماماً، على قدر شعوري، وعلى حجم تأملاتي.

«6»

ولأن الشعر «حالة»، يجب استغلالها جيداً وإلا ضاعت. حالة الشعر التي وصفناها - فيزيائياً وروحياً - تفرض علي بالذات أن أستغل

كل دقيقة فيها، ولهذا عندما أكتب، فإن الورق يجب أن يكون أبيض، أبيض ناصعاً، يشبه الغرفة النظيفة المرتبة، ويشبه المكتب المرتب، ويشبه ثيابي اللائقة، ويشبه الصمت الذي يلف المكان، في قلب الليل .

وتبدأ القصيدة، وإذا حالفني الحظ، وكتبت الجملة الأولى، فإن القصيدة لا بد مكتوبة، لا أنتظر ولا أتوانى أو أتباطأ، وإذا فشلت في الجملة الاولى، توقفت تماماً . . وكأن كل شيء يتبخر . . ويجف . . وعندها لا أجبر نفسي أو روحي على شيء . . إنني أنصاع تماماً لهذه الحالة، ولا أعاندها ولا أتعمدها ولا أستولدها .

حتى أثناء الكتابة، تعاندني فكرة ما، تغلبني اللغة، تتعارض اللغة وفكرتها، أو الفكرة ولغتها، فأحني رأسي للفكرة، أعطيها ما تستحق من كلام، أتلطف معها، فالتف عليها بالكلام، أخرجها كما تريد، ولا أُغصبها على ما أريد .

وخلال تدفق القصيدة، أنساق وراء هذا السلسال، أطاوعه، أتهاود معه، ولا أقسر الأشياء ولا أفرضها، أنساب مع الكلام، وينساب الكلام معي، أشعر بذلك القرب بيني وبين ما أكتب، وألاحظ كثيراً أن الفترة الزمنية التي ألد فيها القصيدة تختفي الأشياء من حولي من صوت ولون ورائحة، كما أفقد الإحساس بالزمن تماماً .

إن المطاوعة للقصيدة أو قل الالتحام بها، لهي من الفترات الزمنية التي تحتوي على متعة شديدة وعميقة إلى درجة انتفاء كل الأشياء خارجها .

«7»

والقصيدة تكتب خارجها أيضاً، وهي واعية لواقعها الموضوعي، لكنها، ومع ذلك، خيار شخصي أيضاً، مجال فردي بالتأكيد، ولهذا فإنني لا أفكر بالجمهور حقاً أثناء الكتابة، ومع ذلك فإن الجمهور حاضر فيها، ففي نهاية الأمر، القصيدة هي بنت جمهورها، ولهذا لا يمكن أن تخونه أو تقف ضده أو تصدمه.. القصيدة بنت ذوق جمهورها وزمنيته ومكانه .. والشاعر الحقيقي خير من يدرك «القاع الغامض» للجمهور الذي ينتمي إليه. ومن هنا قالت العرب إن «الشاعر لسان قومه» بمعنى أنه خير من يعرف الخفايا والخبايا والمزاج النفسي والروحي لقومه.

«8»

والقصيدة في نهاية الأمر نصٌ من الكلام، هذا الكلام خاص، فيه علاقات كمية من كتل الموسيقى على أنواعها، يخلقها ذلك التآلف أو التضاد بين الحروف والكلمات، وعلاقات أخرى لا تدرك بالأذن وحدها، العلاقات بين الكلام تخلق علاقات بين الكلام ومتلقيه، فالنص بعلاقاته مجتمعة، وبالتقائه القارئ وعلاقاته الأخرى أيضاً، تتخلق كيمياء بينهما، المتلقي من جهته يبحث عن علاقات شبيهة في النص، إنه يقارن علاقاته التي يعرفها ويدركها بالعلاقات داخل النص، ومن هنا تنشأ الذائقة النقدية والاستحسان، أو الرفض.

أما علاقتي بالنص، باعتباري كاتبه أو مبدعه، فهي علاقة مبهمة حقاً،

ولا يمكن الحديث عنها بهذه السهولة، ذلك أن النص بما يحمل من فردية وجماعية، من تضمين وتنصيص، من ذاتية وموضوعية، من إضافة وتأثر، يصبح عملياً شيئاً «خارجاً» «برانياً»، ومن هنا، فإنني أقطع علاقتي بما أكتب تماماً، ولا يربطني بديواني المطبوع سوى اسمي فقط.
أعترف حقاً أنني بعد الانتهاء من كتابة نص شعري، أفقد صلتي تماماً به، أشعر أنه يصبح كائناً له حياة أخرى غير حياتي، وله علاقات لا أعرفها ولا أدركها، ومن هنا أيضاً أستغرب قدرة بعض النقاد على الحديث عن قصيدتي بشكل أعجز أنا أن أقوله أو حتى أنتبه إليه.. يصبح النص بعيداً عني، وفي بعض الأحيان أغار من العلاقات الحميمة التي ينسجها نصّي أكثر مني.

«9»

لا أجانب الحقيقة إذا قلت إن النص له قدرة عجيبة على نقلي إلى عالمه الخاص، وإنه يفرض عليّ شكلاً من أشكال التعامل والمعالجة، إذ يفرض عليّ مفرداته وتعابيره و«قيمه» الخاصة ومكانه وزمانه.
إن للنص كينونة خاصة خارجة عني، وبتشكله التدريجي يشكلني معه، ومن ثم تزداد المسافة بيني وبينه، وفي هذه الحالة عليّ أنا أن افهم العلاقات داخل النص، الذي يتطور بعيداً عني.
ومن هنا، أعتقد أن لكل قصيدة أجواءها الخاصة بها، مفردات وإيقاعات وألحاناً، شكلاً ومعنى.
وأذكر في هذا الصدد أنه عندما كتبت ديوان «حليب أسود» فوجئت تماماً

بأن «طريقة الكلام ونوعيته» اختلفت تماماً، وكأنني أذهب إلى هناك، وأعود إلى شوارع القرن الثاني الهجري وقصوره وأحيائه .

وأحب هنا أن أفصّل قليلاً ، إذ إن النص في الديوان اشتمل عليّ، بمعنى أن النص صار يحكمني ويوجه تفكيري ويغير مفرداتي، وجعلني أستحضر المعاني الأولى والمشاعر الغامضة والغارقة في مثيلاتها، بحيث كان عليّ أن أنتبه إلى دوافع وميول ما كنت أقدر على اصطيادها لولا هذا «الكلام» .

ولهذا أقول إن المفردة الشعرية وغير الشعرية أيضاً تحمل معها زمانها ومكانها وخصوصيتها الشديدة والمركزة . . والنص المكوّن أصلاً من مفردات يحملنا عادة إلى مفرداته التي تحملنا إلى جميع دلالاتها الممكنة والمحتملة . . وهذا هو الإدهاش . . النص المؤوَّل . . الشعر تأويل أصلاً .

«10»

بناء على الكلام السابق، وتخصيصاً لتجربة «حليب أسود»، فإن النص الشعري في هذا الديوان بالذات، هو نص حواري، فيه نقاش ومراجعة، فيه نقض وإثبات، فيه آخر، فيه مسرح وحكاية . وفي المسرح والحكاية هناك «أنا» و«أنت»، وبالتالي هناك تقمص، هناك قطع مسافة ما بين أنا وأنت، وهناك اعتراف بالـ«أنت» . وما كان يمكنني أن اقطع هذه المسافة لولا هذا «الحب» ولولا هذه «المعرفة» .

نعم، أدّعي أنني أحب ما أكتب عنه، انفعل به، أتقمصه، أتفحصه إلى الدرجة التي أسمع فيها تنفسه ونبضه وكل خلجاته .

وأدّعي صادقاً أن «هارون الرشيد» كان صديقي طوال كتابتي لديوان «حليب أسود»، جلست معه، وطربت في مجلسه، وسمعته وهو يشكو وهو يتأمل وهو يأمر بتصفية البرامكة.
وأدّعي أيضاً أن الأميرة «العباسة» شقيقة الخليفة كانت صديقتي، وأنني أعرفها عرقاً عرقاً، شعرة شعرة. وبسبب من ذلك، تحدث الجميع في الديوان بالقوة والقدرة نفسها على التعبير، دافع الجميع بلا استثناء عن مواقفهم بأقصى وأقوى ما لديهم من حججٍ ومرافعات.
وللدقة، وحتى يكون الكلام دقيقاً، ودقيقاً جداً، فإن الشخصيات التي أكتب عنها هي أنا أيضاً، هي ما أرغب وما أتمنى وما أحلم وما أطمح وما أكره وما أرفض.
الشخصيات هي تنويعات للمشاعر والرغبات والميول الدفينة، وأعتقد هنا أن المبدعين على اختلاف أنواعهم يخرجون ميولهم على شكل شخصيات. وبالتالي فإنهم يقتطعونها من خضم هائل ومضطرب من كل الطيف الشعوري المقبول وغير المقبول وما بينهما.

«11»

العلاقة ليست ميكانيكية بين الكتابة كاستجابة، والواقع الخارجي كمثير، ذلك أن الكتابة تحتاج فيما يبدو إلى مفتاح معين وخاص حتى تفيض وتفرض نفسها عليّ - نقصد هنا الكتابة التلقائية الإبداعية التي تضغط بشكل لا يمكن مقاومته، ولا نعني بها الكتابة الواجبة أو المهنية -.
ولا يمكن حصر المثيرات الخارجية والداخلية، ولكنها في معظمها لا تدفع

بنا إلى الورق ، وفي بعض الأحيان ، فإن النشاط العقلي والروحي عصيّ على الفهم ، إذ إننا نرتاح في بعض الأحيان إلى أن نتحول إلى باردي الإحساس . . عديمي الاستجابة . . فارغي التفكير ، وكأن دماغنا مسطح دون التواءات أو نتوءات .

وفي بعض الأحيان نفقد الاهتمام أو حتى التمييز بأننا قادرون على الكتابة أو التفكير . .

هذه الحالات تنتاب الجميع على ما أعتقد ، أقصد بها ، الحالة التي نفقد فيها القدرة على الاستجابة ، أو حتى القدرة على الحساسية العالية تجاه الخارج . . ولكن ، وعلى ما يبدو ، فإن هذه الحالة ضرورية جداً لانفجار صمام الكتابة . . وهكذا ، فجأة ، نذهب إلى الورق ، لنتدفق كما لم يحدث من قبل ، وكأن كل هذا الكمون كان ضرورياً لهذه اللحظة الفائقة .

«12»

في فترة ما ، يقع كل مبدع في وهم كبير مفاده أن الفن سيغير الدنيا ، وأن كتابة قصيدة تشبه ظاهرة طبيعية ، ومع الوقت يكتشف أن الفن أحد الروافد الفرعية أو ذات الأهمية الأقل في مجريات الواقع الموضوعي .

سينتبه المبدع إلى أن القوى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والطبيعية تلعب الدور الأقوى في تشكيل الرؤى والاتجاهات ، وأن الفن - كل فن - يخلق إرثاً جمالياً وقيمياً موازياً .

ومع الوقت أيضاً يتطامن الفنان لأن يلتفت إلى نفسه ، وسيعترف بينه

وبين نفسه أن الفن هو خياره الشخصي، وأنه مجاله الحيوي، وأنه فرديته أولاً، وأنه فضاؤه الذي يطلق فيه حيرته وقلقه وأسئلته.

سينتهي المبدع في النهاية إلى أن يقلل من تأثير الجماعة فيه، وأن يُبهت من دور الآخر، ليصبح الفن أكثر خصوصية وذاتية.

وربما كان لخصوصيتنا نحن الذين واجهنا الاحتلال وآلته الوحشية ذلك الإحساس العارم بأن القصيدة تحمل سلاحها ونظام دفاعاتها، ولكن ذلك تغير.. صرنا نعرف أن القصيدة لها عالمها الخاص الذي لا تتجاوزه، ولها قوة تأثير معين لا تتعداه.

لقد كانت هناك غفوة جميلة وغفلة رائعة وربما مقدسة مفادها أن الشعر سيغير الدنيا، وربما كانت هذه الغفلة ضرورية لنكتب المغامرة والجرأة والعنفوان، وحتى نصل الآن إلى مرحلة الوعي والنضج، حيث نكتب قصيدة ذات حرارة أقل ولكنها تدوم أطول، إنني أشكر هذا الوسواس الذي بدأ يدب في رأسي مؤخراً.

المؤرخون الجدد في إسرائيل :

"حشبون نيفش" لا يكفي

بعيداً عن البرود الذهني إزاء حمأة ما فجّره المؤرخون الجدد في إسرائيل، فإننا ننشئ هذا الحوار الهادئ حول ظاهرة تثير الجدل عندنا نحن الفلسطينيين، وعند المثقفين العرب، ناهيك عن أوساط إسرائيلية معينة. ولأننا نعيش هنا، في فلسطين، نحن وعدد من المهتمين في هذا الشأن، ضمن جماهير وطنية مشتبكة اشتباكاً يومياً مع الإسرائيلي على تعدد مستوياته، فإن الحوار أو الجدل حول ظاهرة المؤرخين الجدد، يجب أن يكون بعيداً عن التشنج أو التهور أو الانبهار، أو التصفيق أو الشجب السريع، أو الرفض الجاهل الأعمى، أو الرضى المريض، أو السكوت الغبي، وخصوصاً بعدما اعترف رئيس وزراء إسرائيل السابق «باراك» بمعاناة الشعب الفلسطيني، وعبّر وزير الثقافة الإسرائيلي عن خجله من مجزرة «كفر قاسم»، ما شكّل بداية التفات إسرائيليين إلى الفصول المظلمة من ماضيهم، كما يقولون، وهو ما ينسجم مع بعض ما أثاره بعض المؤرخين في إسرائيل قبل أعوام، واعتبر على أهميته خطوة صغيرة وخجولة.. لا تكفي.

لم يصدقوا بكاءنا

أولاً، وقبل كل شيء، تجب الإشارة إلى أنه لو لم يظهر المؤرخون الجدد في إسرائيل، ولو لم يكتبوا ما كتبوا، لعرفنا أيضاً المعلومات التي أدلوا بها، ولقرأنا ما أشاروا إليه من خلال الكمّ الهائل من الوثائق الرسمية التي مرّ عليها أكثر من ثلاثين عاماً في أرشيفات المؤسسات الرسمية البريطانية والإسرائيلية، وسمحت قوانين الطرفين المشار إليهما

بنشرهما، وهكذا فإن هؤلاء المؤرخين اعتمدوا على تلك الوثائق أولاً، أي أنهم لم يسألوا فلسطينياً واحداً كيف هُجّر من أرضه، ولم يصدق مؤرخ إسرائيلي واحد الكم الهائل من «البكاء الفلسطيني» طيلة خمسين عاماً، يعني لم يصدق العالم روايتنا، ولكن هذا العالم صدق أكاذيبهم، والآن يصدق روايتهم المجزوءة أيضاً. وقبل كل شيء، ما كان لهؤلاء المؤرخين ان يظهروا في إسرائيل لولا هذا المجتمع المأزوم دائماً، المحتقن بمعتقدات ونظريات وأيديولوجيات لم تعد تلبي تغيرات الواقع أبداً، واكتشف الإسرائيلي العادي قبل غيره أزمة الصهيونية نفسها، وبالتالي أزمة المجتمع بكامله.

وقبل كل شيء أيضاً، فإن المؤرخين الجدد، لم يضيفوا إلى روايتنا التاريخية جديداً، بالعكس من ذلك، لقد أنقصوا منها، وقدموها لنا وللعالم ولأنفسهم فتافيت وأجزاء وشذرات، لا رابط بينها في كثير من الأحيان، بمعنى آخر، ماذا قدم «بيني موريس» و«توم سيجف» أكثر من الدكتور وليد الخالدي أو إلياس صنبر؟ ولماذا علينا أن نحتفل هذا الاحتفال لمجرد أن باحثاً إسرائيلياً ما اعترف على استحياء أو بشجاعة بمجازر وفظائع جماعته بحقنا؟!

علينا أن نفيد منهم

وبهدوء، وموضوعية، ومسؤولية، نقول إن ما يقوم به المؤرخون الجدد الآن جيد ومفيد، من حيث إنهم يؤكدون جزءاً من روايتنا، ويفككون الرواية الرسمية الصهيونية، ويخلخلون بشكل ما، الأوهام القومية

والتاريخية وحتى الدينية التي تبني إسرائيل نفسها عليها - وإن كانوا لا ينسفون الأساس الأيديولوجي الصهيوني ذاته - .
وبما أن هؤلاء يكتبون لأنفسهم وليس لنا، وبما أنهم يعيدون تقييم «تجربتهم» ومراجعتها ومحاسبتها، وليس حباً في «سواد عيوننا» أو لإرجاع حقوقنا أو للانسحاب من أراضينا وبيوتنا وشواطئنا «وخبزنا وملحنا»، فإن دورنا الآن - سياسيون ومثقفون وهيئات حكومية وغير حكومية - يتلخص بالاستفادة من هذا التغيير، ومن هذه الزحزحة في المواقف، وأن نستغلها جيداً في المواجهة اليومية على الاصعدة المختلفة.
وهذا السؤال مطروح على الفلسطينيين، ويمكن التفكير بآليات جادة وواعية ومسؤولة للاستفادة من تيار «ما بعد الصهيونية» هذا، ونترك هذا السؤال للجهات المعنية أن تجيب. أي إدخال ما يعنينا من نتائج أبحاث المؤرخين الجدد في مفاوضات الوضع النهائي، وفيما يتعلق باللاجئين خاصة، عدا عن تعميم هذه النتائج على المنظمات الدولية للثقافة والعلوم والملتقيات ذات الشأن.

إنهم تعبير عن أزمة

ما المشكلة هنا؟! أو في سؤال آخر: هل هناك توريط ما في هذا التيار؟!
ويحق لنا أن نسأل مثل هذا السؤال، ويحق لنا أن نتشكك في كل شيء، ويحق لنا أن نفحص كل شيء.
فالمؤرخ الإسرائيلي الجديد - حقيقة - لم يفعل ولم يقدم لي شيئاً جديداً، وهو لم يكتب لي ليناقشني، ولم يكتب لي ليخفف عني آلامي، ولم

يسألني فهو لم يصدقني أصلاً، هو - عملياً- ينقد مجتمعه، وينسف أكاذيبه وأوهامه لتصحيح أوضاعه ولتطهيره ولتقويته ولمعافاته، وهو يفعل ذلك من منطلق أن المجتمع الإسرائيلي يسمح لكل الأفكار والأيديولوجيات بالظهور والتعبير الحرّ - ضمن قوانين وشروط لا يستطيع معها العرب والفلسطينيون التعبير من خلالها - وهنا تكمن العنصرية - .

ظهور المؤرخ الجديد تعبير عن أزمة وليس تعبيراً عن صحوة ضمير، والمؤرخ الجديد ليس حزباً ولا حركة سياسية شعبية، إنه قادم من نخبة أكاديمية، أي أنه بلا تأثير شعبي كبير أصلاً، ولن يصل أحد منهم إلى شعبية «يشعياهو ليفوفيتش» (نبي الغضب) كما اطلق عليه الإسرائيليون أنفسهم (وليفوفيتش هو بروفيسور يهودي مختص في الفيزياء والفلسفة، وله مؤلفات عديدة، ومن أهم أفكاره أنه ندّد باحتلال إسرائيل للأراضي العربية، واعتبر ذلك خيانة للمشروع الصهيوني، وتوسيخ للنظام الأخلاقي الإسرائيلي، واعتبر أن احتلال شعب آخر هو خلخلة ديموغرافية، وبداية النهاية للدولة اليهودية النقيّة . كما اعتبر أن المؤسسة الرسمية الصهيونية تتحوّل إلى خادمة لمشروع امبريالي أكبر منها . ومن آرائه الطريفة أنه يعتقد أن اليهود الحاليين هم يهود أصليون لأنهم يحافظون على حرمة السبت فقط .

"حشبون نيفش"

والإسرائيليون معتادون على ما يسمونه بالعبرية «حشبون نيفش» أي «حساب النفس» باعتباره آلية دفاعية اكتسبوها منذ لعنات الرب الأولى،

فهل هذا المؤرخ الجديد يقوم بهذه العملية علناً، بعد أن شعر الجميع أن الصهيونية قوية بما يكفي لنقد ذاتها بهدف تجديد الشباب والنشاط والاندفاع إلى الأمام؟!

أليس من حقي أن أحاسب نفسي أنا، أيضاً، شاعراً في الوقت ذاته ان التعبير الحر والفكر الاستقلالي هو أفضل الطرق لمعرفة الخلل، ومؤمناً ايضاً ان النقد الذاتي مفيد للفرد والمجتمع والدولة، وأن المجتمع الديناميكي هو المجتمع الذي يستطيع أن يخلق أفراداً قادرين على الرؤية البعيدة والشاملة والحرة؟!

قوى السلام للمحافظة على الدولة

وقبل أن نتحدث عن ظاهرة المؤرخين الجدد، تجب الاشارة الى ظاهرة شعبية سبقتها ألا وهي حركات السلام على اختلاف أسمائها ومضامينها وتوجهاتها، وهي على عكس ظاهرة المؤرخين الجدد، كانت وما تزال شعبية، ولها تأثير لا يكاد يذكر على صانعي القرار السياسي إلى حد ما، وتقوم بنشاطات معينة بمناسبات معينة، ونحن الآن وبدون مزايداتٍ أو عنتريات أو أوهام نعرف أن حركات السلام هذه لم تتجاوز الفكر الصهيوني قيد أنملة! وقد انطلقت جميعاً من مفهوم واحد ووحيد هو الحفاظ على «المجتمع والدولة» بأقل الخسائر الممكنة، وليس هناك من طريق لذلك إلا «فرض سلام مع العرب يؤمنون به بالوجود اليهودي والمشروع الصهيوني» .

وتميز عمل حركات السلام هذه بالازدواجية والتناقض والتذبذب، الأمر

الذي أفقدها كثيراً من أنصارها وتأثيرها، غير متناسين أن سبب نشوء مثل هذه الحركات هو المغامرات والأزمات والسياسات المجنونة التي تقوم بها المؤسسة الحاكمة في إسرائيل، والتي أدت وتؤدي وستؤدي دائماً إلى تلطيخ وجه إسرائيل . . وحركات السلام على اختلافها - وخوفاً على هذه السمعة - تقوم بما تعتقد انه الأفضل لإسرائيل .
أما السؤال عن كيفية تعاملنا نحن الفلسطينيين مع مثل هذه الحركات، فهو أيضاً متروك للجهات المعنية لوضع الخطط وآليات التعامل الصحيح والواعي بعيداً عن المبالغة أو التهويل أو الاحتفال او التجاهل . وربما نعود إلى هذا الموضوع، إن لزم الأمر .

الظاهرة ما زالت نيئة

والمؤرخون الجدد يجمعهم تقريباً أنهم من مواليد الأربعينيات، أي الذين لم يشهدوا المذابح والفظائع التي مورست ضدنا بأعينهم، وغالبيتهم درسوا في الخارج واكتسبوا آليات بحث مختلفة تتميز بالنقدية العالية، وهم ينطلقون من مرجعيات ماركسية أو ماركسية حديثة، وبعضهم لا يتجاوز الطرح الصهيوني، فيما يتجاوز البعض الآخر ذلك بكثير من الحذر، ويرون أن الصهيونية أنهت مشروعها، ويجب على إسرائيل أن تتحول إلى دولة لجميع مواطنيها، الأمر الذي يحتم عليها تغيير كثير من القوانين الخاصة باليهود فقط (هناك أكثر من مليون فلسطيني داخل إسرائيل هم خمس تعداد الدولة المذكورة، وهم مواطنون من الدرجة الثالثة أو الرابعة)، أما الظاهرة نفسها، ظاهرة المؤرخين الجدد فهي ظاهرة

نيئة غضّة، ما زالت في الأطوار الأولى ولا يمكن إطلاق الحكم عليها بشكل نهائي ومحدد، ومجالها الرئيس في أوساط أكاديمية يسارية، ولا تملك تأثيراً على الجمهور الواسع المتعدد والمتنوع وخاصة الأوساط اليمينية ذات التأثير الملحوظ في الشارع الإسرائيلي . كما أن هذه الظاهرة تتفاعل داخل المجتمع الإسرائيلي ذاته وغير موجهة إلى الخارج، ضمن آليات وديناميكيات تعوّد عليها المجتمع الإسرائيلي بسبب طبيعة تركيبته وفلسفته، وبالتالي فإن ممثلي هذه الظاهرة لا يتعرضون للنبذ أو الملاحقة أو المطاردة، بل يعتبرون خيوطاً رئيسة طبيعية داخل النسيج الإسرائيلي وجزءاً لا يتجزأ منه.

في روايتنا نواقص وعتمات

والأهم من هذا كله ، أن احتفالنا بالمؤرخين الجدد الاسرائيلين هو تبخيس لروايتنا نحن . وربما يجدر القول هنا إن روايتنا نحن أيضاً عن النكبة فيها زوايا معتمة كثيرة، وإن لحمتها الأساسية لم تذكر حتى الآن، ولم نؤصّلها!!

وربما يجدر القول إننا نحن بحاجة إلى مؤرخين جدد وليس هم، فالتهجير والطرد والهروب وبيع الأراضي وتخاذل معظم قادة العرب والمسلمين وتواطؤ المسؤولين تم السكوت على معظمها حتى الآن .

نحن لا نحتاج إلى مؤرخين جدد إسرائيليين ليؤكدوا تهجيرنا وطردنا، وزيف الرواية الرسمية الصهيونية، فنحن نعرفها وهي مطبوعة بالنار والبساطير والسواطير على جلودنا، ولا نحتاج إلى قراءتها بالطرائق

السابقة، ولكننا بالتأكيد بحاجة إلى مَنْ يكتب عنا، عن الهزيمة التي تطوي تحت جناحها عادة كمّاً هائلاً من الأخطاء والخطايا والخيانات. هذا ما نحن بحاجة إليه فعلاً. وبالتالي، فإن احتفالنا بباحث إسرائيلي يكتب عن جزء من عذاباتنا كأننا لا نصدق عذابنا إلا إذا جاء من عدونا، وكأننا نحتاج شهادة الجلاد حتى نصدق أننا ضحية.

ونحن لا نطلب من عدونا أن تنطبق روايته على روايتنا، ولكننا – وفي دواخلنا – علينا أن نروي حكايتنا صحيحة، حقيقية، كما هي.

وكما يفعلون هم، يتطهّرون، ويخلّصون أنفسهم من عذاب الضمير – لأنهم أقوياء – علينا أيضاً أن نفعل، مثلهم بالضبط، نكتب تاريخنا كما هو – لأننا ضعفاء في جوانب كثيرة – بعيداً عن احتفالية ساذجة أو صمت غبي.

ظل أن أذكر أن غير دارس عربي تناول ظاهرة المؤرخين الجدد وحركات السلام في إسرائيل، ولعل أفضلها ما ينبغي الرجوع إليه، هي التي نُشرت بالترتيب مع وكالة الاهرام للصحافة في مصر، تحت عنوان «مؤرخو ما بعد الصهيونية يفضحون أكاذيب إسرائيل».

وهي من ثلاثة أجزاء أفدت منها كثيراً، لإضاءة هذه الموضوعة الجدلية الشائكة.. وللحديث بقية.

أرى في النقيض نقيضاً

عن الهوية

سؤال الهوية هو سؤال الوعي، الوعي الذي يحدد التعريفات والمرجعيات. هذا الوعي الذي يبدأ بتحديد الأطر الخاصة بالأنا الفردية والأنا الجمعية وتلك العلاقة الجدلية المتنامية بينهما.

بكلمات أخرى، الهوية هي «أنا» الممتدة في الزمان والمرتبطة في المكان، مع تحديد قاطع لهذه الأنا الخاصة بي، والتي تختلف عن الآخرين. وكأني بهذا التحديد، أُدخلُ دائرةً صغيرةً في دائرة أكبر، وأخرى أكبر من الكل، شرط أن تتقاطع تَلك الدوائر في نقاط عديًدة إلى درجة يصعب تفكيك تلك الدوائر بعضها من بعض، حيث تبدو كأنها دائرة واحدة، هي - إذاً - أقانيم متعددة تشكل أقنوماً واحداً أرتاح إليه وأرتبط به ويرتبط بي.

لهذا، فإن الهوية متعددة المستويات، تفاضلية الترتيب، تكاملية المفهوم، تبدأ بجسدي وتنتهي بعلاقتي مع العالم بما فيه من «آخرين».

هل يمكن القول هنا إن الهوية اختيار؟! أم أن الهوية جبر؟

اختيار باعتبارها وعياً، أم جبر باعتبارها مشروطة بالمولد والثقافة والمكان. هذا سؤال رد عليه الكاتب العبقري غسان كنفاني يوماً في قصته «عائد إلى حيفا» وأجاب بأن الهوية اختيار قائم على الوعي ولا علاقة له بالدم. وعلى الرغم من حدّية هذا الجواب وأحاديته وانسلاخه عن مفاهيم الثقافة القبلية - بدوية كانت أم زراعية - فإن هذا الجواب يشكل أحد جوانب المسألة. وبهذا المفهوم أو هذا التناول فإن الهوية - باعتبارها وعياً - تبدو نوعاً من الانحياز ليس الفكري فقط وإنما الوجداني، ولا يمكن تتّبع جذور الوجدان الضاربة عميقاً في متاهات من التراكم الثقافي والاسطوري والديني الذي ينبت مع المكان وفيه.

ولهذا، فإن من الدقة القول إن الهوية كوعي أو كاختيار لا يكفي أبداً، على الرغم من أن هذا القول مريح - ونهائي - ولكنه، أيضاً، يحتاج إلى توضيح كبير.

فالوعي لا يقوم على مجموعة مسلمات عقلية فقط، ولا يقوم على مجرد مقدمات منطقية فحسب، الوعي نشاط متعدد الوجوه، يتعرّض لتأثيرات مختلفة من كل الجهات والأطراف، ولهذا فإن الوعي ليس نشاطاً عقلياً صرفاً أو «نظيفاً»، الوعي مؤسس على «تفاعل» حيوي مع المحيط، العقل فيه جزء من عدة أجزاء. ومن هنا، فإن الحيوية المؤسسة على الوعي، تتأسس، أيضاً، على مؤثرات لا عقلية ولا منطقية، أو لا يدخل المنطق في تمحيص صدقها من كذبها، أو حقيقتها من عدمها.

هل أخرج الهوية هنا من حدود الوعي بها إلى حدود قدريتها؟! قد يكون هذا صحيحاً إلى حد ما في حالة تفسير الانتماءات القومية والدينية والعقدية.

الفكر لا يكفي لتفسير ذواتنا، كما أن المنطق لا يكفي لتفسير مشاعرنا. هناك ما فوق الفكر والمنطق في تحديد اتجاهات السلوك وأولويات القيم. ربما تكون «الأسرة» أولى المؤثرات الأقوى والأكثر تأثيراً علينا طيلة حياتنا في تحديد من نحن، إن بقاءنا مدة تزيد على اثني عشر عاماً نتلقى القيم ودروس السلوك والعادات واللغة من أهلنا تشكل الفترة الأهم في تخصيب أرواحنا وترهيف وجداننا وتكوين منظومة الصواب والخطأ في أعماقنا، وكذلك في تسمين وتضخيم ما يسميه فرويد «الأنا الأعلى» أو ما يسميه القرآن الكريم «النفس اللوّامة» تلك النفس التي تؤنبنا على أغلاطنا وترضى عن صوابنا - وفي هذا الصدد فقد كتب الإمام الغزالي

أروع التحليل حول نوازع هذه النفس بما يسبق فرويد وغيره بمئات السنين.

«الأسرة» التي يطلق عليها علماء الاجتماع أنها الضرورة لأساس المجتمعات تكتسب حقاً تلك الأهمية في تحديد القيمة وتحديد السلوك المرتبط بهذه القيمة، الأسرة لا تُعْلم السلوك فقط وإنما تعلم القيمة المرتبطة بها، ولكل قيمة مثال، هذا المثال - شئنا أم أبينا - منتزع من ثقافة المكان ذاته. المكان - بما أنه قديم ووعاء للنشاط البشري - يتحول شيئاً فشيئاً إلى شيء مقدس ترتبط به حكايات وروايات خاصة ترفعه من مجرد موجود محسوس إلى شيء آخر لا علاقة له بالحسّية. يتحول المكان من مجرد وعاء إلى قيمة بحد ذاته، له قدرة التأثير على الجسد والوجدان، أيضاً. وقد قام مفكرون عرب وأجانب في دراسة هذا التأثير المكاني على النشاط البشري وادعوا وجود علاقة كبيرة بين الأمرين، بما دعي «بالمكانية» في مصر أو «الجوانيّة» في سوريا، ولهذا، فإن المكان يتحول هو الآخر إلى خيط في نسيج تعريف الأنا الخاصة والأنا الجمعية، باعتبار أن هذا المكان يتشكل من مجموعة من المثل والحكايات والأساطير يطلق عليها اسم ثقافة المكان. ثقافة المكان ليست ميكانيكية أو منفصلة، بل هي متصلة تتطور ببطء ولكنها تتحول فعلاً إلى أشياء مقدسة، ومن هنا قوتها وصعوبة الخلاص منها أو عبادتها وتأليهها.

وقوة المكان تأتي من زمانية، المكان قديم، وكل قديم طيّب وقابل للتأويل، وسهل العبارة، أيضاً.

نحن نحتاج القديم لفهم الجديد، ونحتاج القديم لتعريف حاضرنا، ونحتاج القديم باعتباره خبرة ضرورية، ونحتاج القديم باعتباره أكثر

صدقاً وبهجة وقرباً من الطبيعة وأكثر براءة وقرباً من السماء، نحتاج إلى القديم لأنه يذكرنا بطفولتنا الفردية والجمعية أيضاً. القديم ضروري لتعريف الحاضر وإضاءته وإعادة تشكيله. القديم ليس فقط للاعتبار، بل – وبالقوة ذاتها – جزء من تشكيل الوعي، هذا الوعي الذي يحتاج إلى مكان للحركة وزمان للتنفس. القديم، هو الماضي، هو ما تم إنجازه، ويمكن الحكم عليه أو تأويله، هو ما مضى ولكنه ما زال يتردد حتى الآن، ومن هنا فلا انقطاع للزمن، الماضي جزء هام من تعريف الحاضر – مرة أخرى – ذلك أن الماضي (الزماني والمكاني) جزء من منظومة القيم التي ظلت على الدوام نافعة ومؤثرة إلى حدّ كبير.

وما تقديس الماضي إلا لهذا، وما العودة إلى الماضي إلا لهذه الأسباب، وبالتالي، فإن صلاح الدين، ذلك البطل الذي أنجز ومضى، سيظل في وجداننا تجربة ناجحة تشكل ذروة من ذروات المثل العليا. هل الماضي مُثُلٌ عليا فقط؟! هذه إشكالية أخرى وجدت لها تعبيراً فيما يسمى الأصالة والمعاصرة والعلاقة مع التراث. وبرأيي فإن هذه المشكلة مصطنعة لأنها تعبير عن أزمة بالتعامل مع الواقع، الأمر الذي أدى إلى اختلال بالعلاقة مع الماضي.

عندما أكون صانعاً للتاريخ، فلا أجد مشكلة معه، أما عندما أنزوي فأصبح جالداً للذات، والذات في جزء منها ماض.

وتعريف الهوية، الذي هو، أيضا، تعريف للذات بمستوياتها المتعددة، لا يترك مجالاً للآخر بتعكير صفو هذا الصفاء. الذات لا تقبل معيناً لها في تعريف يفصلها عن الذوات الأخرى.

الهوية بمعناها الشامل – غير العنصري، والمنفتح والإنساني – تحاول

وترغب في أن ترى ذاتها مؤطّرة بمكان فريد وثقافة عريقة، وهذا لا علاقة له بالانفتاح على الآخرين أو التفاعل معهم أو التشارك وإياهم. (نرى حالياً نهضة قوميات عدة تحاول أن تضع الحدود والفوارق بينها وبين الجماعات الأثنية التي تعيش معها، وأكثر من هذا، فإن الفرنسي غوستاف لوبون يرى أن البحث عن تعريفات قومية خاصة بالهوية تحرك التاريخ نفسه على شكل ثورات سياسية وثقافية مختلفة).

قد يكون من العجيب – وهذا رأيي على الأقل – أن تعريف الذات – في حالتنا الفلسطينية – لا يرى في الآخر / النقيض مكملاً بقدر ما يراه نقيضاً يجب الحذر منه والتشكك فيه، وقد رأينا في نهايات القرن الماضي عدد الشعوب والجماعات التي تطالب بانفصالها عن الجماعات التي تشاركها الوطن الواحد. الهوية تحتاج إلى نقيض لتعرف نفسها وتتميز عنه. الهوية باعتبارها وعياً بالعالم تحتاج إلى مَنْ يثيرها ويحفّزها على اختراع صيغة أخرى ورواية تختلف. وهذا ما يُبقي الجماعات حيّة وفاعلة دائماً، وربما هذا الذي يعنيه القرآن الكريم بما ورد في الآية الكريمة «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض..» فالاختلاف في التعريف يعني الاختلاف في تحديد الاتجاهات، والاختلاف في تحديد الاتجاهات يعني تقديم تفاسير مختلفة للمكان الواحد، وهذا هو التاريخ.

الحماية من صمت الهزيمة ولا وعيها

مثقفون .. صورة عن "هناك"

يسيطر في أدبياتنا المعاصرة ومنذ سنوات خطاب جلد الذات والنقد الهدام المفزع، لمائة عام من التجارب العربية، تحت شعار «أُنظر خلفك بغضب»، اقتباساً لعنوان مسرحية جون أسبورن الإنجليزي، وبعيداً عن هذا التيار، الذي نرى فيه نتيجة طبيعية لعقم التجربة «مادة النقد» وخساراتها وهزائمها وثغراتها الواسعة، فإننا هنا، في هذه المقالة، ننظر خلفنا أيضاً، ولكن دون غضب، بل برويّة وهدوء، وتمعّن وإمعان في مائة عام من الخسارة الهائلة، ونحن نؤمن في الوقت نفسه، أن ثمة بذرة تنمو تحت صخرة الخسران الثقيلة، لكنها تنمو، في ظرف غاية في القسوة والصعوبة، لكنها أيضاً، ستشق جلد التراب اليابس، وستشهق في فضاء عربي جديد، وستكون، لا محالة، شجرة نضرة عالية، ولو بعد مائة عام.

والمشكلة، في اعتقادنا، وفي أحد مستوياتها المهمة، أن تياراً عريضاً من المثقفين والكتّاب والباحثين العرب، ومعظم صناع القرار الرسمي العربي، تواطأوا على تقديم هذا الخطاب الناقد المتكامل، أو الذي يبدو هكذا، ويحاولون، بشتى الطرائق والوسائل، فرضه على الشارع العربي من المحيط إلى الخليج.

والحقيقة الظاهرة، للأسف، أنهم ما زالوا يسيطرون على المنابر والمناهج والوسائل، حتى أنهم يجرّمون الصوت الآخر، أو الرؤيا المختلفة، ويعتبرونها معاكسة لكل معاني التقدم والحياة، فهم الذين يقدمون لنا تاريخنا، أو للدقة؛ يعيدون لنا كتابة تاريخنا، والفانتازي في هذا الأمر، أو المفارقة، هي أننا نصدقهم، ونترسّم خطاهم، ونتباهى بحفظ ما يقذفون به إلينا.

وهم يقدّمون لنا رؤيتهم المغلوطة، الناقصة، والمشوّهة. وهكذا، ليس علينا إلا أن نصدق كذبة «ظلامية العصور الوسطى» - التي تعني تاريخيا أوج الحضارة العربية الإسلامية -، وأن نصدق عصر «الاكتشافات الجغرافية» التي تعني تاريخياً أن العرب سبقوا كل المكتشفين الأوروبيين بعشرات السنين وأن نصدق «عصر التنوير»، الذي يعني تاريخياً اكتساب المعرفة عن طريقة التجربة العلمية التي بدأها الباحث العربي المسلم منذ القرن الثامن الميلادي.

إنهم بذلك يقنعوننا أنهم مركز الكون ومكتشفوه، ومصدر العلم ومنتجوه، وأن كل المساهمات البشرية الأخرى، ما هي إلا ظلال باهتة وتجارب هزيلة وجهود ضائعة.

إن «تكرير المعرفة» وإعادة إنتاجها مرة أخرى، استلاب حقيقي لتجربتنا الفعلية، وتبخيس لها، بل وقتلها أيضا، والمشكلة هنا أن الأمر وصل إلى المناهج الدراسية والبرامج التلفزيونية ومراكز البحث العلمي وإبداعات النخبة المثقفة.

يمكننا أن نفتح منهاج أي صف، من صفوف مدارسنا، لندرك أن كتابة التاريخ عندنا، هي ترداد لرؤية الغرب التاريخي، أو فهمهم له، وهكذا، ننتج أو نساهم في إنتاج أدمغة، تعتقد أن التاريخ بدأ من «هناك»، وليس من هنا، وتعدى الأمر ذلك، ففي كتابة التاريخ بالذات، هناك عمليات غسيل، ومناطق عتمة، ومراحل مسكوت عنها.

وحتى برامج الأطفال الكرتونية، تقدم البطل الغربي والحياة الغربية، وأنماط سلوكها وقيمها، وهكذا ينشأ الطفل العربي على بطولة «روبن هود» و«إيفنهو» و«بوباي»، ولا يتعرف إطلاقاً على أبطال العرب

والمسلمين «من العصور الوسطى»، ولا يكفي ترجمة كلمة «نبيذ» بكلمة «عصير»، وكأننا بهذا قد خلّصنا ضميرنا أمام الأطفال.

ولن نتجاوز هنا ما قاله إدوارد سعيد حول إقناعنا بأن صورة الغرب عنا هي الصورة الأفضل أو الأدق، بمعنى أن الصورة التي يكوّنها الغرب عنا هي صورتنا عن أنفسنا، وهكذا، لا نكلف أنفسنا عبء البحث أو المراجعة أو النظر أو المساءلة، وبهذا، فإن عملية تطبيعنا مع الغرب تامة وقائمة، لأن التطبيع في جوهره هو قبول رواية الآخر عنا. وعليه، فإن ثمة أسئلة تتوالد تباعاً، بناءً على هذه النتيجة، أهمها:

من هو المسؤول عن نشر «وفرض» المفهوم الغربي ومصطلحه ورؤيته؟!

ومن المسؤول عن هدم الحدود والخصوصيات والهوية والذات؟!

ومن المسؤول عن هذا الاستلاب والدونية والضآلة والقزمية؟!

وقد نعتقد أن الإجابة تكمن، ليس فقط في انهيار النظام السياسي أمام وحشية الاستعمار وآلته العسكرية الغاشمة، فهناك دول تعرضت لما تعرضنا إليه، ولكنها استعادت عافيتها واستردت قوتها، كاليابان والهند، بمعنى أن انهيار النظام السياسي، لا يشكل انهياراً للذات وانكساراً لها بالضرورة، ولكن المسألة معقدة لدينا، إذ إن النظام السياسي، أيضاً، يلعب الدور الأكبر في رسم الحاضر المستقبل، ويشكّل رؤية للماضي كذلك. وللتوضيح، فإن النظام السياسي العربي الذي قام بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية، كان ملتصقاً بالغرب، ربيباً له، مقلداً، ومقيّداً، ومنبهراً، ومسلوباً، وخاضعاً لكل المعادلات والقيم والرؤى التي كان ظاهرياً يناضل ضدها.

فالنظام العربي السياسي الذي ورث الإمبراطورية العثمانية لم يأت

بجديد، ولم يتقدم برؤية مخالفة أو أصيلة، ولم يؤسس لتجربته من خلال بيئته أو محيطه، ولم يعتمد على جماهيره أيضاً، بل سرعان ما تنكر لها، وأكثر من ذلك، قام باستبعاد ما هو أصيل في هذه التجربة، وقد نستثني هنا تجارب بعض القوى التي وصلت إلى سدّة الحكم، لكنها سرعان ما تلاشت. ولهذا، سرعان ما اتسعت الفجوة بين النظام السياسي والجمهور، وصار كلٌ منهما في واد، ونحن الآن، وفي هذا الوقت بالذات، نرى آثار هذه الفجوة وتجلياتها، تأخذ أشكال الصراعات الإثنية والعقدية والطائفية والمذهبية، ورأيناها، ونراها سابقاً ولاحقاً، على شكل هزائم فظيعة ومرعبة، ونراها على شكل هرولة واستجداء مضحك نحو أحضان العدو الذي حورب طيلة هذا القرن. بكلمات أخرى، وصلت أزمة هذا النظام إلى الدرجة التي اكتشف فيها أن كل ما تم فعله طيلة هذه العقود كان خاطئاً، وأن الدخول في عصر جديد ومرحلة جديدة تتطلب السلام مع العدو، هي الطريقة الأسلم والأفضل، والمعنى من هذا الكلام أن كل ما قيل وكل ما كتب وكل ما رفع من شعارات، كان دجلاً وكذباً وبهتاناً؟!

إنها أزمة طاحنة وساحقة تدفع الجماهير ثمنها.

ذلك أن النظام السياسي، وبالقدر الذي لا يعني انهياره انكساراً للذات، يعني أيضاً، وبالقوة والقدرة ذاتيهما، فرض رؤيته واختياره وانحيازه أيضاً.

وإن عدم قدرة النظام السياسي على تقديم رؤية حقيقية تتلاءم مع محيطها وناسها ومكانها، يعني، بالضرورة، هزيمتها أو تهشيمها، أو بقاءها معطّلة ومستلبة، وضعيفة، وهذا ما يجعلها أنظمة شرسة وقامعة أيضاً،

وأكثر من ذلك، فإن تقديم رؤية خاطئة أو غير ملائمة من قبل هذه الأنظمة يعني تعطيلاً لمبادرات الجمهور، وتثبيطاً لها، وهزيمتها أيضاً، ولهذا السبب نرى هجرة العقول، والأحزاب السرية، والعنف، والعنف المضاد، والجوع، والفقر، والمرض، والتسوّل من صندوق النقد والدول المتحكّمة الكبرى.

وتأكيداً لهذا كله، وقبل هذا وبعده، ندرك أسباب وجود هذا الذي يسمى «التغريب».. تغريب الروح والجسد والكلام والهوى والمصلحة.

والمهزوم يعبد الهازم، والمسحوق يتمثّل الساحق - وهذا من عجائب اتجاهات النفس البشرية -. ويمكن بهذا الصدد رسم صورة لمثقف عربي عادي، قارئ ويمارس بعض النشاط الإبداعي، فنراه بالضرورة ينأى بنفسه، أو يربأ من ذلك الكم الهائل من التجارب والنماذج الرائعة التي تزخر بها ثقافته الأصيلة، وهو - إن عرفها - سيبخسها حقها أو يقلل من شأنها أو يحللها بطريقة أو بمنهج غربي، وهو منهج شكّاك، مقارن، يعتمد العلوم الإنسانية من سوسيولوجيا وأثنولوجيا وأنثروبولوجيا وأركيولوجيا في فهم الظواهر، ويحللها بصورة ميكانيكية أيضاً. وبهذا، يتحوّل الوحي إلى مصدر مشبوه للمعرفة، وتتحول ظاهرة الأمة إلى أضحوكة. إن هذا المثقف - الذي اتفقنا على عاديته - سيهاجر بعقله إلى تلك الإنجازات العلمية والأدبية والفنية التي أنتجها عصر النهضة أو عصر التنوير، وسيعتبر أن كل شيء بدأ من «هناك»، وقد نبحث لهذا المثقف عن عذر، فهو يعيش في نظام سياسي يستورد كل شيء من «هناك»، ويستعير القوانين التي نبتت من «هناك»، ويبني معرفيته على طريقة «هناك»، ويتبع سياسة «هناك»، ومناهجه من «هناك»، واللغة الرسمية

الثانية من «هناك»، وملابسه من «هناك»، وبرامج تلفزيونه من «هناك»، فماذا يبقى لهذا المثقف أن يفعل، هو بالتأكيد يرى أن تقليد مجتمعه لـ«هناك» تقليد مشوّه، ناقص، ومضحك، لهذا نراه يعتمد «هناك» معياراً للتقدم وحسن الإدارة وقوة القول والتعبير. إن هذا المثقف سيبدأ في كراهية مجتمعه وتطوير مشاعر عدائية ضده، فيقع بالضرورة في ازدواجية القول والفعل، سيضطر إلى ممارسة حياة لا تشبه قوله أو إبداعه، وسيضطر إلى المجاملة والكذب والنفاق، وهكذا «نربح» مثقفاً كاذباً دجالاً. ومن هنا نرى هامشية تأثير المثقفين على الفعل السياسي والقرار السياسي دائماً. هذه الازدواجية قد تدفع بعض هؤلاء المصابين بالصَّغار الاجتماعي، تخلصاً من هذا الشعور بالكذب، فنرى البعض يكتب بحدة كبيرة ضد أخص خصوصيات مجتمعة، وأكثرها احتراماً وقدسية، وهو يفعل ذلك من منطلق غير أصيل، وإنما من رغبته في التخلص من هذا الوضع المحرج على المستوى الشخصي والنفسي، وقد يندفع البعض إلى هذا، نتيجة الجهل، الجهل المعرفي نقصد، أو - وهذا أيضاً صحيح- من منطلق الهوى والغرض والمصلحة.

هذا المثقف المزوّد بمنجزات القرن التاسع عشر الفلسفية والعلمية، المردد مقولات المذاهب الأوروبية الكبرى، هو نتاج نظام سياسي مهزوم، لم يستطع أن يقدم له نموذجاً حقيقياً يتلاءم والمجتمع والتاريخ، ومن هنا، فإن كلا المقصودين مهزوم.. مهزوم هزيمة ساحقة وماحقة..

هذه الهزيمة الماحقة والساحقة تتجلى في تلك النقاشات العقيمة حول التطبيع مثلاً.. أمة كاملة تتحدث عن التطبيع ولا تتحدث عن التحرير، أمة كاملة تتحدث عن كيفية التعامل مع إسرائيل في مرحلة السلام،

وثلاثة أرباع جماهيرها جائعة، فقيرة، مقموعة، وفي عتمات السجون، وتعاني من التصحر والإهمال والتبعية وسرقة الثروات.. ويفتك بها غول المرض والهوان!

مثقفون يلبسون ربطات عنق ويتقعرون بالكلام عن كيفية رؤيتهم للتطبيع.. وهم لا يستطيعون كتابة ما يريدون!! والذي يتربع على كاهلهم لا يعرف الجغرافيا ولا التاريخ.

هذه الهزيمة الماحقة الساحقة، تنتج سينما رديئة، وأغاني هابطة تقترب من وحوحات الجنس، وكتباً تعتبر سيدنا محمَّداً «مجرد رجل سياسي داهية»، أو تجاهر بأن بناة الكعبة هم الفراعنة، وأن موسى «عاش في الجزيرة العربية»، وتتجاهل النص القرآني الكريم الصريح، والكارثة أن أصحاب هذه الكتب يُعتبرون رأس رمح الثقافة التقدمية، بل إن معارضتهم تعد غاية الرجعية وأول أسباب التخلّف والضلال.

إن هذه الهزيمة الماحقة الساحقة، وصل معها بعض المجرمين الذين أصبحوا أو تحولوا إلى مسؤولين كبار جداً، ورموز أنظمة عميلة تقرر شكل المنطقة وسياستها الكبرى.

هذه الهزيمة الماحقة الساحقة وصل الأمر فيها إلى الشعر.. هذا القول المهيب المقدّس العذب الخارق، الذي يقال فيه إن الشعر لم يعد يكفي، فتعالوا نكتب ما لا يكتب.. لنكتب الصمت واللاوعي والمكبوت والمضغوط والمهموس والمغموس.. وما لا ندري، وليس السوء في هذه الزوايا، بل في ضحالة معرفة «الناقل» بالفكر الذي يزعم أنه «ينقله».. والشعر، هذا البدائي الرائع.. الذي لا يهزم.. سيقول دائماً وببساطة.. و«بوعي» كبير وواسع وعريض: سأحب أرضي وأمتي

وعقيدتي دائماً، سأحميها، لأبقى حراً عليها ومعها وبها، إلى أبد الداهرين. . هكذا أحتمي من صمت الهزيمة ولاوعيها. . وأحصّن نفسي مما تقوله أصداء «هناك»، هؤلاء الموجودون هنا.

أي مثقف .. وآخر؟؟

(1)

لا يعقل أبداً، وبعد أكثر من قرن كامل، أن النقاش الممل والمكرور ما زال قائماً، وما تزال التهم معدّة سلفاً، وما تزال حتى التعابير ذاتها تستعمل في كل مواجهة .

أكثر من قرن وما يزال بعض المثقفين العرب يحاول تحديد العلاقة مع ما يسمى «الآخر»، وتجده مُحتاراً في كمية «الأخذ» عن هذا «الآخر»؛ حجمه أو شكله أو طريقته أو وجهته .

وبقيت الأسئلة: هل نأخذ علومه ونترك قيمه أم نأخذ علومه وقيمه؟

أو هل نتبنى مناهجه وأساليبه للوصول إلى ما وصل إليه؟

بل ما يزال هناك مَنْ يقسّم ردود الأفعال إلى تغريبية وسلفية و«معتدلة» .

لماذا؟

أكثر من قرن كامل والنقاش المستعر هذا لم يسفر إلا عن هزائم تتوالى، والهزيمة أكبر من أختها . . .

أما هذا «الآخر» الذي ما نزال نحاول تحديد العلاقة معه، فقد حدد علاقته بنا تماماً؛ أنظمة تابعة وشعوباً مسلوبة وأراض تزدحم بالثروات .

باختصار وحرقة وألم نقول: إن كل النقاش المُستعر حول تحديد العلاقة مع «الآخر» أثمرت انتصارات لهذا «الآخر» . استطاع هذا «الآخر» هضم هذا النقاش وتجاوزه واسقاطه تماماً . .

كيف كان ذلك؟

المشروع النهضوي العربي المزود بكافة الأدبيات الفكرية والأيديولوجية - سياسياً واجتماعياً - لم يستطع أن ينفلت من سيطرة «الآخر» أو تأثيره .

«البرجوازية الوطنية» التي سعت إلى دولة قومية سقطت في براثن الفقر والتأخر والاستئثار الحزبي للسلطة، الأمر الذي جرّها إلى مواجهات دامية مع شعوبها .

هذه البرجوازية الوطنية لم تستطع أن تلتقي - حتى بمصالح معينة - مع برجوازيات قريبة جغرافياً ووجدانياً . وثمة عوامل خارجية استعمارية ساهمت في هذا التباعد وهذه المغايرة .

هذه البرجوازية الوطنية المزدحمة بالمنظّرين من كل الأنواع، لم تستطع أن تبعد عن شعوبها الفقر والتخلف والهزيمة، فما هي بالضبط هذه البرجوازية التي لم تستطع النهوض بمهماتها التاريخية؟ التاريخ لا يعيد نفسه، هذا صحيح، ولكن ألم يكن هناك خطأ كبير في تشخيص الحالة التاريخية؟

يمكنني القول هنا إن سقوط هذه «البرجوازية الوطنية» في أحضان «الآخر» كان سهلاً إلى درجة تدعو إلى التساؤل والدهشة .

وما يثير الدهشة والعجب أن هذه «البرجوازية الوطنية العتيدة» استطاعت تغيير اتجاهها بعد حرب الخليج بسرعة البرق بحيث أن كل شعاراتها التي رفعتها كانت مجرد أكاذيب .

عن أي «آخر» نتكلم؟

المشروع «العشائري» و«الفئوي» و«الطائفي» هو مجرد رسوم كاريكاتورية افتعلها هذا «الآخر» الذي نحاربه ونسعى إلى تحديد «العلاقة» معه .

أكذوبة هذا المشروع أنه يعتمد على «الآخر» في بقائه، في الوقت الذي يتبنّى فيه ظاهرياً مقولات ضده . . كيف ذلك؟ هذا هو بالضبط خداع الشعوب .

هزائم تلو أخرى، ثم يأتي المثقفون ليتنافسوا أيهم أبلغ حجة في شتم «الآخر» أو تمجيده أو «عقلنته».

مهزومون حتّى النخاع، ثم تقولون: «الآخر».

وتناقشون كميّة الأخذ عن الآخر وكمية العطاء لَهُ.

وتتحدثون عن العلمية والتكنولوجيا والإدارة الصحيحة.

وتقيسون مدى التقدم بما وصل إليه «الآخر».

حتى وصل الأمر ببعض هؤلاء إلى تجميل الإسرائيلي اليهودي.

ثم قبلتم بـ «الحق» بوجود المحتل على أرضنا.

ومهزومونَ حتى قبلتم بوجود قوات أجنبية تحمي مخادعكم وزوجاتكم.

(2)

في روايته «آخر القرن» يقول الصديق الروائي أحمد رفيق عوض: «هذا هو قرن نهضة العرب، وقرن نهضة اليهود، إذاً، هذا هو قرن اليهود»! واعتقد جازماً أنه لخّص المسألة بهذه الكلمات.. اليهود أقاموا دولتهم رغم نقاشاتنا المستمرة منذ أكثر من قرن كامل.. اليهود أقاموا دولة في أقل من خمسين سنة، واليابان نهضت في أقل من ذلك، والهند فعلت مثلها، حتى الأرجنتين استطاعت أن تكون دولة ذات وزن في أمريكا اللاتينية، أما العرب فقد انشغلوا بتجديد العلاقة مع «الآخر» إلى الدرجة التي قام فيها بعض المضبوعين باعتبار أن حملة نابليون على مصر هي بدء النهضة العربية.. إلى هذه الدرجة وصل الانضباع والضعف والخور. المؤرخون الذين يعتقدون ذلك يعتبرون أن نهضتنا الحديثة

بدأت بحملة مجرم استعماري قاتل، رغب البعض بتنظيم احتفال كبير بذكرى هذه المناسبة، لقد نسي هذا المضبوع آلاف المصريين الذين استشهدوا دفاعاً عن مصر المباركة .

أية نهضة عربية نتحدث عنها ما دامت مصنوعة من «الآخر» .

صنعتها عشرات مدارس التبشير والكليات الأجنبية .

وصنعتها سفارات وقنصليات الغرب .

وصنعتها احتلالات مباشرة .

وصنعتها دوائر مخابرات غربية .

وصنعها «مثقفون» شككوا بالتاريخ والقرآن واللغة .

«مثقفون» اعتقدوا أن علم الاجتماع وعلم الأحياء يعطيان أجوبة شافية على كل شيء .

«مثقفون» لم يفرقوا بين «العالم» و«رجل الأمن» .

أية نهضة عربية نتحدث عنها ونحن في الألفية الثالثة لا نستطيع التحكم بسعر براميل النفط، ولا نستطيع إجبار مجلس الأمن على اتخاذ قرار صغير بارسال مجموعة مراقبين دوليين غير مسلحين إلى فلسطين؟

أية نهضة عربية نتحدث عنها وهناك شعب العراق وشعب فلسطين وشعب السودان وشعب ليبيا محاصر لرغبة «آخر» نرتمي على أقدامه .

هل هناك بعد مجال لمناقشة العلاقة مع «الآخر»؟

وهل هذا نقاش لا لزوم له . . بعد كل ذلك؟!

(3)

عن أي مثقفين نتحدث؟!

هل نتحدث عن معظم مثقفي أوائل القرن العشرين الذين انبهروا بـ «الآخر» حتى باعوا انفسهم له س. . وكانوا وفّروا الخميرة اللازمة لَإنبات أنظمة هزيلة لم تثبت طويلاً؟

أم نتحدث عن مثقفي الثلاثينيات والأربعينيات الأكثر أصالة وعمقاً في النقاش والجدل لمحاولتهم الاستيعاب ومن ثم الرد (يلاحظ بهذا الصدد أن هناك حملات إعلامية تحاول دائماً تسليط الضوء على بعض هؤلاء دون بعض، فمثلاً من يعرف الآن شيئاً كثيراً عن مصطفى صادق الرفاعي والسنهوري وغيرهم)؟

أم نتحدث عن مثقفي الخمسينيات والستينيات الذين طبّلوا وزمّروا لمعادلات غريبة وعجيبة حاولوا تطبيقها على شعوب ليس لها بها أدنى علاقة؟

أم نتحدث عن مثقفي الخمسينيات والستينيات الذين باعوا أنفسهم لأنظمة النفط والمسلسلات التلفزيونية ؟

ومن عجب بهذا الصدد أن نشأ في هذه الفترة ما يسمى بـ «التيار الإسلامي» المدعوم من أنظمة عشائرية وعائلية وطائفية ومذهبيَة .

هذا «التيار الإسلامي» وإن كان قدم دراسات نظرية إلا أنه كان يخلو من المفهوم الحقيقي للإسلام، ونقصد به المواجهة والمكاشفة الحقيقية للداء والدواء .

كان هذا التيار المتورع بالقشور محاولة بارعة لذر الرماد في العيون ولقطع

الطريق أمام نفوذ معين إضافة إلى توفير شرعية موهوبة لهذه الأنظمة.
عن أي مثقفين نتحدث؟
عن مثقفي حروب الطائفية؟
أم عن المذابح من الخليج إلى المحيط؟
وعن الفقر والتعذيب والبوليسية؟
عن أفلام المقاولات والعُري ومجلات الفن التي تخفي تجارة الرقيق الأبيض تحتها؟
أم عن الحروب الأهلية والحدودية والوهمية؟

(4)

اليهود المحتلّون على أعتاب بيوتنا.
ودولتهم العبرية تستطيع تهديد أي وريد في أجسادنا.
ثم يأتي «مثقف» يتحدث عن العلاقة مع اليهود، وكيف تكون، وعلى أي المذاهب يجب أن تفهم.
بعد أكثر من قرن كامل، يتحدثون عن اليهود لإيجاد صيغة مناسبة لقبولهم!
هكذا استطاع «الآخر» امتلاك قوة مذهلة تكفي لظهور «مثقفين» يتحدثون عن إمكانية التعايش معاً.
أليس هذا إنهيارٌ لكل شيء؟
أليس هذا إنهزامٌ ما بعده إنهزام؟
وعلى رأي «آخر القرن» فإن «الهزيمة أشد من القتل».

نعم! الهزيمة أشد من القتل، لأنه بعد مائة عام أو أكثر لا يزال أطفالنا يموتون بسبب الجوع أو الفقر أو القصف أو البرد أو التهجير أو التقتيل أو ما شئت. المهزوم يموت في اليوم ألف مرة..

(5)

«صرعة ثقافية» تستوقفين وتذهلني، أيضاً..
إنهم مثقفو المنظمات غير الحكومية.. التسمية مضحكة كما هو كل شيء.
والمنظمات غير الحكومية هذه غريبة وعجيبة معاً في آن واحد.
التمويل يأتي على قدر الأهداف وعلى طريقة التنفيذ.
هنا، في فلسطين، نشاهد مجلات للأطفال تتحدث عن إسرائيل وأطفال إسرائيل، السبب في ذلك، مصدر التمويل فقط.
هنا، في فلسطين، نقرأ مقالات «جريئة» تحاول تقديم المحتل بطريقة أخرى، وأنا لا أفهم ذلك أبداً، المحتل يقتلني، وفي هذه الحالة لا يعنيني إن كان رساماً أو شاعراً أو عاشقاً أو عازفاً للموسيقى أو غير ذلك. إنه يقتلني.. فيجب أن أمنعه قبل ذلك.. أعجب هذا الكلام الناس المثقفين أم لم يعجب.. أعجب الشعراء أم لم يعجب.. وخاصة الصغار منهم.
مثقفو المنظمات غير الحكومية، الليبراليون، المتنورون، الثوريون، يتحولون فجأة إلى جامعي معلومات تحت مسميات «باحث» أو «خبير».
وبعض الدول العربية قدمت لنا أنموذجاً ساطعاً على مثل هذا «الخبير»!!

(6)

ماذا نقترح والحالة هذه؟

للإجابة على هذا السؤال، نعيد ما قلناه بشكل آخر: ما دامت نقاشات استمرّت لأكثر من قرن أسفرت عن هزائم بشعة ومدوية، فإن هناك خللاً في كل شيء، الهزيمة لا تلد صدفة، ولا تأتي دفعة واحدة.

الهزائم هي مثل فساد الأطعمة .. بطيئة ولكنها متراكمة.

وباختصار، أيضاً، فإن هذه النقاشات، وما دامت تنتهي لصالح «الليبرالية» و«الديمقراطية» و«المجتمع المدني الحديث».

وما دام «مجتمعنا المدني الحديث» مهزوماً حتى النخاع، فهذا يعني أن كل الأساسات التي قام عليها فاسدة وخربة أيضاً.

وما دام «الآخر» الذي نحاول تحديد العلاقة معه يركبنا ركب الحمير - أعزكم الله - فإن هناك علاقة واحدة ووحيدة يجب أن تضبط الأمور معه.

هذه العلاقة هي علاقة المواجهة، علاقة الندية، علاقة التكافؤ، علاقة السيد بالسيد، علاقة الجار بالجار، لا علاقات العبودية أو الشرق أوسطية أو أحلاف دفاعية أو ما شئت من ذلك.

نقترح مع «الآخر» علاقة الحرب إن شئت أيضاً، على أن نحدد شكلها وكيفيتها.

نقترح مع «الآخر» علاقة أخرى غير التي سادت لأكثر من قرن كامل.

نقترح صيغة أخرى غير هذه، تلك الصيغة التي فرضت علينا إسرائيل .. وكفى بذلك من علاقة ذل وخزي وعار.

(7)

أريد أن أذكر بآية من كتاب الله جل وعلا ، آية أعود إليها دائماً ، تقول :
«قاتلوهم كافة كما يقاتلوكم كافة» . والقتال ليس بالسلاح دائماً .
كلام الله فوق كل كلام . . وبالتأكيد فهو فوق كلام الشراب الرخيص والمهووسين والفجرة والسوداويين ومثقفي النفط والفضائيات والمنظمات غير الحكومية والصغار . . أجلّكم الله .